

سبع حكايا تعود من بعيد

فبراير 2016

411

تأليف: جان كريستوف روفان

ترجمة وتقديم: لينا بدر



سبع حكايا تعود من بعيد

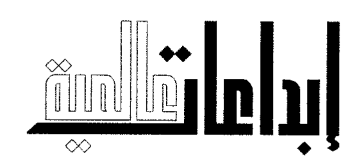


سبع حكايا تعود من بعيد

تأليف: جان كريستوف روفان

ترجمة وتقديم: لينا بدر

مراجعة: أ. د. كاميليا صبحي



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-476-4

سبع حكايا تعود من بعيد

جان كريستوف روفان



Jean-Christophe Rufin

Sept Histoires qui reviennent de loin

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م

إبداعات عالمية - العدد 411

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)


الفهرس

المقدمة

جان كريستوف روفان

ولد في مدينة «بورغ» في فرنسا في 1952/6/28.

طبيب ومؤرخ وكاتب ودبلوماسي.

بعد رحيل والده الطبيب البيطري، وكان جان ما يزال طفلا، لم تتمكن أمه التي كانت تعمل في حقل الدعاية بباريس من تربيته بمفردها فتكفّل به جدّاه، وبعد أن نال تعليمه الثانوي، دخل كلية الطب ومعهد الدراسات السياسية في باريس.

على الرغم من اختياره اختصاص طب الأعصاب لكنه في العام 1976 ذهب لإتمام خدمته الإلزامية كطبيب مساعد بالتوليد في تونس.

أكمل عمله كطبيب حتى أصبح رئيس عيادة ثم ملحقاً تابعاً لوزارة الصحة في مستشفيات باريس.

منذ العام 2002 ترأس حركة ضد الجوع ليغادر وظيفته في 2006، ويكرس وقته للكتابة.

يعد كطبيب من رواد الحركات الإنسانية لمنظمة «أطباء بلا حدود».

كان رئيسا للعديد من البعثات في أفريقيا الشرقية وأميركا اللاتينية.

قادته أولى مهامه في العام 1976 إلى أريتيريا التي دمرتها الحرب آنذاك. دخل إليها متخفياً مع القوات المتمردة في قلب الأفواج الإنسانية. صادف هناك آزيب التي أصبحت زوجته الثانية.

في العام 1985 أصبح المدير الطبي لـ «حركة ضد الجوع» في أثيوبيا.

ما بين 1991 - 1993 صار نائب رئيس منظمة أطباء بلا حدود.

ما بين 1994 - 1996 عيّن مديراً للصليب الأحمر الفرنسي.

في العام 1999 كانت وظيفته في كوسوفو مديراً لجمعية «الطوارئ العاجلة».

ما بين 1986 - 1988 أصبح مستشار أمين سر الدولة لحقوق الإنسان.

ما بين 1989 - 1990 أوفد إلى البرازيل كملحق ثقافي.

بقي في وزارة فرانسوا ليوتاريه لمدة سنتين مديراً للأبحاث في معهد العلاقات الدولية والإستراتيجية.

ما بين 1996 - 1999 قاد الحملة الإنسانية إلى البوسنة والهرسك.

بتاريخ 2007/9/3 عين سفيراً لفرنسا في كل من السنغال وغامبيا، وترك مهامه في العام 2010.

مناصبه الأدبية

كرس أكثر من عشرين سنة من حياته للعمل في المنظمات الإنسانية غير الحكومية في كل من نيكاراغوا وأفغانستان والفيليبين ورواندا ودول البلقان. أتاحت له هذه التجربة على أرض الواقع أن يتفحص دور المنظمات الإنسانية في مواقع الصراع، وبخاصة في كتابه الأول «الفخ الإنساني»، وهو دراسة حول الرهانات السياسية للعمل الإنساني وتناقضات تلك

المنظمـات التـي تتوجه إلى إغاثة الشـعوب المنكوبـة وتفيد بذلك الحـكام الديكتاتوريـين عن غيـر قصد، كما أوضح ذلـك أيضاً في روايته «القضايا الخاسرة».

رواياته التاريخية والسياسية والمغامراتية كلها من وحي أسفاره ومشاركاته الميدانية.

تلقى العديد من الجوائز عن أعماله، ومنها:

جائزة الريشة الذهبية من جمعية مؤلفي السافوا.

جائزة غونكور وجائزة البحر المتوسط لرواية «الحبشي».

جائزة أنترأليه عن رواية «القضايا الخاسرة».

للمـرة الثانية ينال جائزة غونكور عـن رواية «برازيل الحمراء» في العام 2001.

حـازت روايـة «الديكتاتـور الليبيرالـي» على جائـزة جان جاك روسّو.

انتخـب فـي العـام 2008 عضـوا فـي الأكاديميـة الفرنسـية، وهـي أعلـى هيئـة ثقافية في فرنسـا، والتي يطلق علـى أعضائها «الخالدون»، وبذلك يكون الأصغر سنا بينهم.

استلهم أعماله الأدبية من تجربته كطبيب ودبلوماسي في أكثر الأماكن بؤسـاً وتخلفاً في العالم، لهذا تأتي كتاباته غنية ونابضة بحـس إنسـاني عـال، فهـي تبحث فـي مسـألة تلاقـي الحضارات والعلاقة بين البلدان.

أسلوبه رشيق وبسيط، وترجمت كتبه إلى أكثر لغات العالم.

كتابـه الأخيـر «سـبع حكايـا آتيـة مـن بعيـد» يروي فيه سـبع قصص بحيزها الزمني القصير لينقل لنا لمحات شـيقة عن أناس من أفريقيا وآسيا وجزر الآنتيل وأوروبا.

فـي هذا العمـل، يدخـل الكاتب جان كريسـتوف روفـان للمرة الأولـى فـي مضمار القصـة القصيرة، هو الروائـي الذي لا تكفيه الرواية عادة لسـرد حكاياه. أراد أن ينقـل للقارئ تجاربه الحياتية ككاتـب ودبلوماسـي، وبالدرجـة الأولـى كإنسـان شـهد التنـوع الحضاري في العالم الذي جابه سـواء بحكم عمله الدبلوماسـي أو في البعثات الإنسانية العديدة التي شارك بها وترأس بعضها.

هنـاك تلاعـب بالكلمات حـين يقول «مـن بعيد»، هـذا البعيد المرتكـز علـى الزمان والمكان. تنقلنا بعض هـذه الحكايا إلى بلاد غريبـة وثقافـات مختلفـة، وتقـوم بدور صلـة الوصل بـين البعد الجغرافي والبعد الزمني.

مـن موزمبيق إلى كيرغسـتان، من جبال الألـب الإيطالية إلى سـواحل جزيرة موريس، سـبع حكايا مفعمة بروائح البحر والبر، لكنهـا تقطـر فطنـة عالية تجـاه حال العالـم والدوافـع العميقة للكائنات البشـرية. هي تدعو القارئ إلى رحلة خارجة عن المألوف بصحبة أشـخاص قدرها واحـد تقريباً، مشـدودة بطريقة ما إلى ماضيهـا، وهـذا البـزوغ للماضـي هـو الـذي يسـبب التحـول في الشخصيات، إذا كانت تنقلنا إلى زوايا العالم الأربع، لكن الحكاية تتعلـق بشـخصيات تحت رحمة ظروف لا يمكن تجاوزها. تكشـف هذه النماذج نقاط ضعف وحنيناً وآمالاً تأبى الاندثار.

عبـر هـذه الحكايـا نصـادف حضـارات غيـر قابلـة للتعايـش، جروحـاً من التاريخ لـم تندمل بعد، ولكن غيـر ذلك، حالات حب عبـر القارات وأوقاتا سـعيدة تتشـاركها الشـعوب. وإذا كان للقصة القصيـرة آلياتهـا المتعـارف عليها في عالم الكتابـة فإن روفان في أناقـة أسـلوبه وجمال لغتـه، والأهم مـن كل ذلك نهايـة الحكاية

المنطوية على مفاجأة، حقق هنا «ضربة المعلم» التي يستمتع القارئ بها في ختام القصة.

هل تأتي من خيال جان كريستوف روفان؟ من أي روفان تصدر؟ من الطبيب الإنساني؟ من السفير السابق؟ أم من الروائي المكرم بالجوائز؟ هو الكاتب الرحّالة الباحث عن كنزه، تحت أكوام التراب والحصى تظهر له فينقضُّ عليها بكل سرور. في أغلبها وصف لمشاهداته، فلقد كانت أمامه كل الفرص كي يدرك بإحساسه الإنساني العالي القضايا المعاصرة الكبرى. برؤيته الفريدة أعطى للقضايا وجوها إنسانية نقرؤها في هذه الحكايا.

المفاجأة في هذه المجموعة هو أسلوب ينحو إلى التهكم والسخرية المطعمة بالخيال تارة وبالشعرية تارة أخرى حسب الحاجة، فتكشف عن كاتب حاد البصيرة ودقيق الفكر. إنها لحظات حياة يشاركنا إياها بمرح وانضباطية عالية. جمله الوصفية الفضفاضة عادة تتخذ هنا شكلاً قصيراً تجميلياً وفعالا.

مزدرياً السرد الطويل يتجه نحو الحدث بشكل مباشر، فيضع القارئ أمام المختصر المفيد، الجمل صادقة ومنمقة، غنية بالذكريات الخاصة.

روفان طبيب الجسد وطبيب الروح أفضل من يرى الاختلاجات المأساوية للعالم، لهذا تأتي أعماله كلها في مصاف متقدم لقارئ من العالم.

القصة الأولى، «شغف فرنكوفوني» تحكي عن ابنة دبلوماسي من كيرغستان مدللة إلى حد النزوات تصل إلى فرنسا مع مرافقتها. ها هي تكسر محتويات غرفة الفندق في قلب العاصمة الفرنسية، هي الشغوفة بكل ما هو فرنسي، ولا يتمكن أحد من

التفاهم معها باللغة التي تعلمتها على يد أستاذ نصاب كان يقبع في سجون الأب، واحتال على الاثنين معا، وبدأ بإعطاء الفتاة دروسا خصوصية باللغة الفرنسية كما يدّعي. تقع الفتاة في حبه إلى أن يحين وقت الفرار، يقترح المغادرة إلى فرنسا قبلها بعد أن أعطته كل مدخراتها وكلها أمل أن يشتري شقة حبهما هناك. يسارع الأب بترحيله خوفا على ابنته الهائمة به. عند اكتشافه لألاعيبه يكاشف الابنة التي ترفض التصديق، وتقع فريسة الغم وهو الذي لا يطيق رؤيتها على هذه الحال. عند تفكك الاتحاد السوفييتي واستقلال الجمهوريات الواحدة تلو الأخرى تبدأ الرحلات السياحية إلى أوروبا، فترى الابنة فرصتها بالسفر لعلّها تلتقي الحبيب الهارب. حبكة القصة تدور حول سوء فهم اللغة التي تتحدثها الفتاة ويلتئم جمعٌ مؤلَّفٌ من المدير وبعض موظفي الفندق وعناصر الشرطة للوقوف أمام هذا الإشكال، إلى أن يفهم لغتها أحد الموظفين المهاجرين من أصل هنغاري. تحل المسألة بسلاسة دون تعقيد، وتستمر الفتاة بالاعتقاد أن هناك من يفهم فرنسيتها أخيرا.

يتطرق الكاتب هنا إلى مشكلة المهاجرين من جنسيات متعددة إلى بلده الأم، وتتوضح عبر الحوار الأخير نظرة السكان الأصليين لهم، كما يلمح بأسلوب يقارب السخرية إلى نظام الحكم الديكتاتوري القمعي في روسيا الاتحادية.

في «الغارقون» يأخذنا الكاتب إلى جزيرة موريس في المحيط الهندي، حيث يعيش من تبقى من الاستعماريين البيض. زوجان في سن التقاعد يتحققان من أنه لم يعد لهما مكان وسط الشعب الهندي الذي يجتاح الجزيرة، حين يكتشفان ذات صباح تمثالاً

للإلهة شيفا على شاطئ حيزهما المسمى خليج القرصان، يقوم الزوجان بعمل لا يلائم سنهما، عمل يقارب الجنحة، إذ يسحبان التمثال ذات ليلة ليأخذاه في سيارتهما الجيب إلى تل في أعلى الجزيرة حيث تتجمّع أماكن العبادة. بعد مغامرة المراهقة هذه يتضح عدم جدوى عملهما، إذ يحل محل التمثال مزار كامل للصلاة والحج.

هنا يبرز الكاتب الحس الاستعماري المتأصل لدى البيض وشعورهم بملكية المكان ورغبتهم بامتلاك الزمان الذي تغير لصالح الهنود في النهاية.

صراع طبقي ونفسي في الوقت ذاته، إذ إن توسع الطبقة الشعبية يخرب الصورة المثالية للجزيرة، ويزيل الزمن الجميل إلى غير رجعة، لا استعمار دون عبودية مهما ادعى تنظيم الحقوق، الغلبة للسكان الأصليين مهما طال الزمن.

روفان المولع بالجبال والقمم يأخذنا في قصة «ملجأ ديلبييرو» إلى مرتفعات «دولوميتي» الإيطالية في جبال الألب مع متسلق جبال عتيد وفيّ لهواية لم يمارسها منذ عقود، ويعود مصطحبا عائلته للقيام برحلة على الأقدام إلى مكان لم يعد له وجود. يتخذ دور المرشد الصارم التقليدي مجبرا إياهم على حمل معدات ومؤن تصلح لبلوغ القمة البيضاء في عز موسم الثلوج. بعد مشقة وعناء وتذمر تنتهي الجولة إلى اللامكان؛ فالاستراحة أزيلت منذ عهد طويل وهو لا يدري.

إنه دون كيشوت بلباس مرشد لتسلق الجبال يلاحق ماضيه وأحلامه. لولا حس الفكاهة الساخر الذي يتجلى لدى الكاتب لكانت القصة مأساوية.

مما لا شك فيه أن قصة «ليلة مناوبة» تمثل ذكرى خاصة لدى الطبيب الكاتب في بداية عهده، تجري أحداثها في أحد مستشفيات المعونة الاجتماعية في باريس، إنها تجربة حيّة، لهذا أتى الوصف فيها دقيقا تتداخل فيه نظرة الطبيب والكاتب معا. النقطة التي ترتكز عليها القصة هي «شهادة الوفاة»، هو الطبيب الداخلي المبتدئ يطلب منه في ليلة مناوبته تأكيد وفاة أحد المرضى في قسم الرعاية الصحية طويلة الأمد، كيف سيتمكن شاب في مقتبل العمر لا يعرف عن الموت شيئا سوى تعريفه الطبي من أن يكون المسؤول بطريقة ما عن إنهاء مسيرة حياة طويلة، مستذكرا «شهادة الميلاد»، كأن الأمر متوقف على ما ندوّنه في سجلاتنا الاجتماعية من بيانات وحالات، ها هو يواجه الموت حتميا، ويقع تحت اختبار الكشف عنه وتأكيده.

في عشاق لورنسو مارك يذكّر الكاتب بموزمبيق الزمن الغابر في سنوات الستينيات عندما كانت العاصمة تدعى لورنسو مارك قبل أن يطلق عليها اسم «مابوتو» في العام 1976. يعود إليها الراوي بعد أربعين عاماً من الغياب حين كان عازف كمان هاويا. يتداخل في هذه القصة الخاص بالعام، فتاريخ البلاد وما طرأ عليها من بعد العهدة البرتغالية والاستقلال.

يقوم البطل بمسيرة نحو العاصمة لملاقاة خطيبته بعد أن افترقا وعاش كل منهما حياته ليعاودا اللقاء في المكان نفسه حيث افترقا. في رحلته ما بين بيته ورصيف الميناء ينقل لنا روفان صورا عن البلاد وما شهدته من أحداث دامية لتصل إلى الحداثة الغربية المتناقضة مع الأصول والتراث المحلي. تباين أحدثته العولمة بشكل يجعل الارتياب الإحساس الطاغي على

إنسان العصر الحالي. يتوقف الزمن في المشهد الأخير في لقطة حنين للماضي الجميل بكل ما يحمله من مساوئ.

صحيح أن قصة «حارس الرداء» تجري في سريلانكا، لكن إحدى الشخصيات تروي قصتها الخاصة لتتداخل فيها الحالة السياسية للجزيرة مع قصة والد الدبلوماسي في معتقل باكنفالد النازي. يبوح الدبلوماسي الغاضب لصديقه الموظف في السفارة أيضا بمغامرة راهوال العامل الهندي الذي يقوم بخدمته في المنزل، فقد استشف منه إرسال ابنه الأصغر إلى معسكرات تدريب المقاتلين والانتحاريين دون ورع أو تردد. كان ريتر وهو اسم الدبلوماسي يحتفظ في خزانته بقميص والده الذي كان يلبسه في المعتقل كنوع من الوفاء لعذاباته المريرة. يفاجأ براهوال أنه أخرجه من علبته، وقام بتنظيفه وكيّه وتعليقه على مشجب الخزانة.

جمع الكاتب هنا بين قصتي انعدام العدالة في عالمنا هذا، والمستمرة حتى يومنا، فلقد استنتج ريتر أن الوحش خرج من جديد من قمقمه، وكل محاولات الإنسانية هي لضبطه فقط لا غير، لكنه مستعد للخروج في أية لحظة من اللحظات. وينوه هنا إلى عمل المنظمات الإنسانية المحدود والمخيب للآمال على لسان شخصين أرادا الانخراط في هذا العمل رغبة منهما في إنقاذ العالم.

في «قطار الحياة» حيث الحركة في البعدين الزمني والمكاني، تدور أحداث القصة في قطار ما بين باريس ولوكسومبورغ متوقفا عدة محطات، وأهمها العطل الذي أجبره على التوقف. حوار بين غريبين «واسّا» المهاجرة من مالي مع عائلتها والمقيمة في كييل

بألمانيا، ومصور صحافي حر في منتصف العمر مبهور بملامحها الجذابة وحركاتها العفوية النشطة وردود أفعالها المعلنة.

تبوح له بعد توقف القطار وبإغواء ظريف بقصة حبها لشاب ألماني ثري تتعجل الوصول إليه، باءت كل محاولاتها للزواج منه بالفشل. تلعن حظها البائس، لكن هذا البوح الغريب للمصور يوصلهما إلى اقتراح حل لمشكلتها العويصة.

من قدم الاقتراح؟ لم يعد أي منهما يذكر ذلك، لكن المهم أن واسّا تزوجت فيما بعد من الشاب الألماني الجميل، وتعيش معه حياة رغيدة مع ولديهما بكل الوفاء والحب. هنا يجعلنا الكاتب شهودا على قضايا المهاجرين الأجانب إلى أوروبا والنساء بشكل خاص والعاملات منهن بالتحديد، موليا كل تعاطف واهتمام لوضعهن الإنساني البائس الحزين الموسوم بالتعب الجسدي المنهك.

يأتي الاهتمام بهذا الكتاب لجان كريستوف روفان استمرارا لمتابعة أعمال كاتب فذ من أهم كتّاب فرنسا، هو العضو الأصغر سناً في الأكاديمية الفرنسية، ويكفي علما أن أعضاءها يلقّبون بالخالدين كي نعرف قيمة هذا الكاتب الذي يتصف بالعالمية. وقد أحسستُ كمن عثر على كاتب إنساني فريد في الأدب الفرنسي الحديث، لهذا اعتبرتُه لقية ثمينة، وكان من الطبيعي أن يتعرف على أدبه القارئ العربي.

أما بالنسبة لاختياري هذا العمل بالذات فلأنه أول مجموعة قصصية للكاتب، وتقدم للقارئ المتعة والإفادة في الوقت ذاته.

شغف فرنكوفوني

- سيد بول! الغرفة 224... لقد حطمت كل شيء!

كانت فيرجيني خادمة الغرفة قد نزلت مهرولة كي تخبر المدير فوجدته في مكتبه. حالما وصل في الصباح أغلق على نفسه وشغّل التلفاز. كانت القناة الأولى تنقل في ذلك اليوم زيارة غورباتشوف إلى الولايات المتحدة. قضية الساعة الآن، انهيار الاتحاد السوفييتي الذي يحدث مباشرة.

- حطمت كل شيء، أين؟ غمغم.

- في غرفتها طبعا، قلبت السرير، المقاعد، الطاولة، كل شيء.

- سوف نعيد ترتيبها.

- لا، أنت لا تدرك. لديها قوة خارقة، بالنسبة لامرأة قصيرة مثلها. الملاءات، مزقتها إلى خيوط.. حطمت سطح الطاولة الرخامي.. لم يتبقَ أي مرآة في الغرفة.. إنها مجزرة.

- هل هي بمفردها؟

- معها تلك السيدة المسنة من السفارة، لكن يبدو أن هذا لا يهدئها بتاتا.

السفارة! السفارة السوفييتية. هزّ السيد بول رأسه. كانت إحدى نتائج الأحداث الجارية، الوصول المفاجئ للسائحين الروس، بمباركة سفارتهم.

– بينما كانت تكسّر، لم تتوقف عن الثرثرة، لم يفهم أحد ماذا تقول.

– سيدة السفارة لم تترجم لك؟

– هـي، بالكاد تتفوه بثلاث كلمات فرنسية، اللغة الأجنبية الوحيدة التي تعرفها هي الألمانية.

– الألمانية؟ ردد السيد بول وهو يعدل جلسته.

قالت فيرجيني رأيها وهي تمنع نفسها عن الابتسام، كانت تعرف ماذا تفعل. عند كلمة «الألمانية»، أبدى السيد بول اهتمامه فجأة، وقف، شدّ على صدارته وأطفأ التلفاز.. التاريخ يمكن أن ينتظر.

– سوف أذهب إليها، قال.

يدين في مهنته إلى اللغات الأجنبية، ومن بين كل تلك التي يتحدث بها، الألمانية هي المفضلة لديه. كانت والدته ذات الأصل الإلزاسي قد علمته إياها منذ طفولته.

حافظ داخل المصعد مع فتاة الغرفة على وجه رصين يستجمع أفكاره كملاكم يتجه نحو الحلبة. بالكاد وصلا إلى الطابق الرابع، سمعا الزعيق. أدرك فجأة مقدار خطورة الوضع. التحطيم يمكن غض النظر عنه، لكن الصخب لا يمكن السماح به داخل مؤسسة من هذه الفئة: أربع نجوم نيلت بالغالي، موقع من ذهب على بعد خطوتين من الشانزيليزيه، زبائن من أرفع المستويات.

كان هناك بابان مفتوحان في طول الممر، ورجلان ببرنس الحمام استيقظا على نحو سيئ، يحتجان على الضوضاء التي دفعت بهما إلى خارج السرير. غمغم السيد بول اعتذارات عاجلة. حين وصل إلى الباب ٢٢٤، قرعه. جاءت على الفور

امرأة شــقراء وفتحت له. كانت متبرجة على الطراز السوفييتي القبيح الذي لا يمكن تقليده، وشعرها مرفوع فيه عقيصة منتزعة من صفحات «الموضة» من مجلة أيام فرنسا سنوات الستينيات. وكانت ســحنتها متســلطة ومرتعبة في الوقــت ذاته، وهو مزيج شائع جدا عادة لدى حواشــي السوڤييت المرافقة للمفوضيات. أدخلت المدير إلى المدخل الصغير الممدود بالمخمل البني، والذي يستخدم كغرفة انتظار. كانت الأرضية تئز تحت الخطوات: المرآة الڤينيســية تحولت إلى شــظايا، ووراء الباب المؤدي إلى الغرفة يُسمَع نحيب.

- أنا فرنســا، أنا ليس منذ زمن طويل، رطنت الدبلوماسية.. قبل ڤيينا.. النمسا، أنت تعرف الألمانية.

- بالتأكيد ســيدتي، أجاب الســيد بول وهو يتابع تلك اللغة بســهولة. أنــا أصغي إليــك، ما الــذي يجري؟ مــن تكون هذه الشخصية؟ وما سبب هذه الضوضاء؟

- شكرا شكرا، صاحت وهي تمسك بيدي المدير.

كانــت أصابعها المفتولــة مغطاة بخــواتم رخيصة، والطلاء يتقشر فوق أظفارها.

سحب السيد بول يديه بسرعة.

- هكــذا، أيها المدير، هي، إنها ابنــة وجيه من أعيان الدولة الكبار في كيرغســتان. أنــت تعرف أين تقع كيرغســتان أليس كذلك؟ في آسيا الوسطى، قرب الهمالايا.

كانت الروســية تزفر حرف الهاء بشدة، وعلى غير علم منها كانت تقلد صوت الرياح الجليدية فوق القمم العالية.

- في جنوب روســيا، إذا أردت، يقطنها المغول. همّت بحركة

لتشـــدّ عينيها ولكن، مراعاة منها لتبرج كلّفها الكثير من العناء، امتنعت.

- برررررد قارس في الشتاء، ولكن بلاد غنية: قطعان، مناجم، قمح..

ضحكت بعصبية، ثم أردفت بصوت خفيض وهي تمد عنقها:

- والد الســـيدة، أمين عام لبلاد كيرغستان الشيوعية، عائلة كبيرة، رئيس قبيلة، أتفهم؟

- وماذا تفعل هنا؟

- حلم! صاحت الروســـية بلهجة صـــارت فجأة طنانة. حلم، أيها المدير! منذ الأزل تحلم السيدة بالمجيء إلى فرنسا.

ثم من جديد، وبصوت أخفض:

- قبل اليوم، مستحيل، إنها مراقبة بشدة، أتفهم؟

كان خوف المرافقة الشيوعية أشد من رياح الحرية التي تبدد معها الاتحاد السوفييتي القديم. خشيت أن تقول المزيد.

- مع السياســـة الجديدة، ذات الشفافية، توسلت السيدة إلى والدها، ووالدها توسل إلى سلطات أعلى.

انحنت صوب السيد بول، وهمست نفخة بروح النعناع.

- غورباتشوف بذاته.

- فهمت، قال المدير وهو يبتعد. ذلك لا يفسر لي لماذا تحطم كل شيء.

عند هذه الكلمات، انفتح باب الغرفة فجأة. كان لدى السيدة التـــي تحدق بصمت في وجوه الدخلاء مـــا يدعو للخوف. كانت هيئتهـــا وأمارات وجهها تذكّر بمن نجا من إعصار. قد تكون في الثلاثينات من عمرها. وجه عريض ومســـطح، شديد الشحوب،

ولكن كأن جمهورا غاضبا رمى على هذه الشاشـــة الكامدة المواد الأكثر خباثة. أحمر شــفاه مســحوق، كحل رموش متفشٍّ، آثار خدوش ترســم تشــكيلة مضحكة. رغم الضيق الشــديد الذي يعبّر عنه هذا الوجه لكنه أثّر بشــكل أقل في خاطر الســيد بول من مشــهد الغرفة المنكوبة. مع ذلك لم تترك له الســيدة فرصة الاســتمتاع بمعاينة المكان. تقدمت نحوه وصوبت إلى ربطة عنقه إصبعــا ملطخا بالدماء، وتركت عليها بصمة كبيرة. كان الســيد بول سيتراجع لو لم يسمّره الصوت القوي والآمر للسيدة الشابة في مكانه.

توجهت إليه مطــولا، كان خطابها غير مفهوم بتاتا، رغم أن المدير كان يتحدث عدة لغات ويألف الروسية، لم يتعرف إلى أي أصل، ولا أية نهاية، ولا حتى تلك الكلمات الفرنسية التي هاجرت إلى لغات الشرق، والتي تشير إلى المصائب: كارثة، كابوس.. لهذا الســبب، كانت عبارات المسكينة لا معنى لها. كان الصوت يصدر للحظات قليلة شــجيا، وفي لحظات أخرى يتضخم وكأنه يشرع بوصف الســهوب الواســعة حيث تعبر القطعان، وانتهت بهمسة شبه مداعِبة.

متأثراً بهذا التعزيم المثير للشــجن، رفّ الســيد بول بعينيه، هزّ رأسه وهشّ ابتسامة. ابتسمت له المرأة بدورها وتحول التوتر العصبي إلى قهقهة شاملة. صار المدير سعيدا الآن وفخورا لأنه أنهى الحادثة عند وصوله.

غير أن الكيرغســتانية التفتت ناحية ممثلة السفارة، وراحت تقول لها شــيئا بلغة مختلفة هذه المرة، تعرّف إليها الســيد بول دون أن يفهمها: كانت تلك اللغة الروسية.

- تقول السيدة بأنك فهمتها، إنها مسرورة جدا جدا.
- فهمتها.. إذا أردنا؛ لنقل إنني أصغيت إليها جيدا و..
توقفت الأجنبية الشابة عن الابتسام، وقطبت جبينها وهي تصغي إلى السيد بول يتكلم. التفتت من جديد ناحية الدبلوماسية وتحدثت إليها بلهجة طفل متقلب الأطوار.
- هي، غير مسرورة، تريد أن تحدثها بالفرنسية، الفرنسية فقط، لا بل قالت: أفضل فرنسية.
أثارت الملاحظة سخط المدير.
- ربما لا أستخدم أفضل فرنسية، ولكن هذه هي الفرنسية التي أتحدثها، ويبدو لي سيدتي، أنها صحيحة تماما.
أدرك في تلك اللحظة أن الكيرغستانية كانت تنظر إليه وعلى وجهها سيماء الانتظار القلق.
- مرحبا بك في فرنسا، تلفظ السيد بول وهو يفصّل كل حرف بكل وضوح ممكن. من غير المجدي أن تغضبي، قولي لنا فقط إلى ماذا تحتاجين.
لم تبدِ الفتاة المسكينة أية بارقة ذكاء وهي تصغي إلى هذه العبارة. كانت تركّز إلى أقصى حد لكنها لا تلتقط على ما يبدو أية كلمة. بعد صمت دام طويلا، تراخت وشرعت تنتحب من جديد.
صاح السيد بول بوجه المرأة الروسية بمزاج عكر.
- هل لك أن تقولي لي في النهاية، بأية لغة توجهتْ إليَّ هذه الفتاة منذ قليل.
- لا أعرف.
- لا تعرفين.

– لا، هذه ليست الروسية.

– كنت أشك بالأمر. إنها تتحدث الروسية معك ومعي، تستخدم لهجة أخرى، ما هي؟

– ليس لدي أدنى فكرة.

– الكيرغستانية ربما؟ لديهم لغة بالتأكيد، هؤلاء القوم..

– لا أظن، لغتهم نوع من التركية، كان عندي رفاق كيرغستانيون في الجامعة، في موسكو. فضلا عن ذلك، حين تتحدث على الهاتف مع والدها، تستخدم الكيرغستانية الصحيحة وهي مختلفة جدا.

– إذا، ما الذي تتكلمه؟ ولماذا تحتفظ لي بتلك الهذرمة؟

أخفضت الروسية عينيها، كان واضحا أن لديها الوقت أكثر من محدِّثها.

– تقول إنها تتحدث الفرنسية.

– الفرنسية! اللغة التي تستخدمها معي هي الفرنسية؟

– اطمئن، لستَ أول من صعّب عليه فرنسيتها، منذ وصولها إلى باريس، لم تلتق شخصا واحدا يفهمها، لهذا، هي غاضبة جدا. هذا الصباح، دقت جرس نادل الطابق، جاء، لكنهما لم يتمكنا من التحدث، كما يقال عندكم، هذا ما وضع النار فوق البارود.

جلست الفتاة المسكينة فوق مسند أحد المقاعد المقلوبة، وراحت تبكي بصوت خافت. بقي أبطال المشهد الثلاثة صامتين، وسط خراب حطام الأثاث. كانت فتاة الغرفة تنتظر في الخارج، حين لم تعد تسمع أي صوت، مدّت رأسها واستفهمت من مديرها بنظرة. نهض السيد بول، قلب كرسيين بحركة حاسمة، قدّم واحدا للروسية وجلس على الآخر.

- عليَّ أن أوضح هذا الغموض من فضلك، سـوف تترجمين للسيدة الشابة أسئلتي إلى الروسية، وبالمقابل، سوف تعطينني أجوبتها بالألمانية.

- أولا، أتصل بالسفارة..

- فيما بعد، الآن، افعلي ما قلته لك.

عبثت الروسية بعقيصتها الشبيهة بالملفوف المفروم والمملح، واتخذت هيئة تابع روسي خاضع ومستاء في الوقت ذاته.

- اسأليها في البداية، أين تعلمت الفرنسية ومن علمها إياها.

لدى سماعها الترجمة، انتصبت الفتاة في كرسيها، وجلست بشكل مريح أكثر، ساقاها مثنيتان تحت فخذيها، أمسكت بمنديل كان مرميا على الأرض، راحت وهي تمسح وجهها تتحدث الروسية بلهجة هادئة وحزينة. كانت المترجمة توقفها كل خمس جمل كي تترجم. بدأت الحكاية تنساب من تلقاء ذاتها دون حاجة لدفعها إلى الكلام.

حكت في البداية عن طفولتها، كانت طفلة وحيدة، والدها رجل لا ينثني وعنيف، لا يتوانى عن رمي الناس في السجن أو حتى تصفيتهم. كانت الروسية منزعجة قليلا لأنها تترجم عبارات كهذه تتعلق بواحد من أعيان الدولة الكبار، لكن في نهاية الأمر، لم تكن تفعل حتى الآن سوى الإذعان.

كل الناس في كيرغستان تخاف هذا الحاكم المستبد القاسي. ماتت زوجته وهي شابة، الشخص الوحيد الذي استطاع تهدئة غضب الطاغية كان ابنته المحبوبة. في ميلادها السابع، قدّم لها حصانا منغوليا صغيرا، كانا معا يمتطيانه في السهول الشاسعة الصفراء بسنابل القمح الناضجة، في أصياف آسيا الوسطى

الحارة. في الشتاء، كان لديها زلاجة يجرها حصان لونه أبيض، يصعد والدها في الخلف على مزلاجيه، يقف ممسكا اللجام، بينما تقوم وهي مدثرة بالجلود، بالصياح مطلقة الأوامر وهي تضحك.

كان الحاكم يرتعد خوفا على ابنته، لدرجة أنه لا يحق لأحد الاقتراب منها، باستثناء بعض الخدم المراقبين بشدة. لديها بمفردها جناح كامل من القصر، يطل على ساحة الشرف، كان والدها يستحضر ألعابا من كل روسيا وحتى من البلاد الصديقة. ترعرعت وسط الدمى الكوبية ومصنوعات الليف الطبيعي القيتنامية، كان كل همّ الحاكم، ألّا يصيب ابنته السأم.

كو - مين، هو اسمها، وقد أدركت مبكرا أنها تملك بهذا سلاحا قويا؛ إن تتهدت وكان لنظراتها هيئة كئيبة، أو لو بدأت تتثاءب في عزٍّ ما بعد الظهر، كان والدها المرتعب من فكرةِ تلفُّظِها فقط لكلمة ضجر، يستجيب مسبقا لكل نزواتها.

كانت تقرأ كثيرا، قدّم لها والدها المؤلفات الكاملة بلغة فرنسية، لا يمكن أن تكون سيئة كليا، لأنها كانت روسية. الكونتيسة «دو سيغور» المولودة في روستوبشين، ملأت ليالي الفتاة الصغيرة. ترجمات «الشيطان الصغير» أو «الجنرال دوراكين»، كانت تفتح أمام الطفلة عالما جديدا، هو فرنسا. منذ ذلك الحين، رغبت قبل كل شيء بأن تتعرف إليها. غذّى والدها هذا الشغف بتزويدها بكتب أخرى، بالزاك، دوما، جورج ساند، كانوا يؤججون كل بدوره الولع الفرنسي لدى كو-مين، لكن الوالد كابنته، كانا يعلمان إلى أين تتجه هذه الحكاية؛ سينتهي الأمر بالمراهقة ذات يوم إلى أن تطلب زيارة فرنسا، وسيكون والدها مكرها على الرفض.

في روسيا البريجينيقية، كان الجمود السياسي حلا لكل شيء. ليس واردا أن يرسل رئيس جمهورية سوفييتية ابنته بحرّية إلى الغرب. كانت كو - مين تعرف ذلك. هكذا حادت عن متطلباتها نحو هدف يمكن نيله، إذا كانت لا تستطيع أن تذهب إلى فرنسا، فهي تريد على الأقل أن تتعلم الفرنسية. وافق والدها بارتياح، تبدت القصة أبسط من المتوقع، لم يكن في ذلك الحين لا في العاصمة ولا في أي مكان آخر في السهوب أستاذ للغة الفرنسية. أرسَل مبعوثين إلى البلدان المجاورة وحتى إلى موسكو، لتحريض أحد الطيور النادرة على ترك عمله، لكن دون جدوى.

كان والد كو - مين يحاول التخلي عن الفكرة حين علم ذات يوم أن داخل سجونه يتعفن رجل يتقن الفرنسية. استحضره، كان هذا السجين شخصية غريبة؛ يقول إن عمره أربعون عاما، ويدعى أندريه، لكنه لا يملك أي مستند يؤكد أقواله. رجل قصير، شعره خفيف، لم يكن له وقع في النفس، لا من جهة عرض منكبيه ولا من جهة مظهره. كان يجلس فوق كرسيه متراجعا إلى الخلف بسحنة طفل حزين، لكنه ما إن يفتح فمه، حتى يستأثر بمحدثه ويخضعه لسحره. كانت لغته الروسية سلسة، إنما تلونها لهجة لا يمكن تحديدها، تجعله أنيقا، وتضفي على أقل كلمة من كلامه المزيد من الفطنة.

أندريه هذا، شرح للحاكم أنه يوغسلافي من جهة الأب، هرب والداه إلى روسيا في نهاية الحرب، وترعرع في «تومسك». نشاطاته السياسية عندما كان طالبا بعمر الشباب أدت إلى إبعاده وإرساله في نهاية الستينيات إلى قرية سيبيرية صغيرة، ومنها لاذ بالفرار. حين اعترض الموظف بأنهم كانوا قد توقفوا

عن الإبعاد إلى سيبيريا في ذلك الوقت، اكتفى الرجل الصغير بالابتسام وهو ينظر إلى عقب سيجارته التي يمسكها بين أصابعه، ولم يساور الحاكم الشك، فهو يعرف عن ذلك أكثر منه بكثير.

الحق يقال، لم يكن يبالي بالأمر، الشيء الوحيد الذي يهمه، أن يعرف فيما إذا كان قادرا على تعليم الفرنسية لابنته أو لا.

- الفرنسية، سيدي الحاكم، إنها لغتي الأم. كانت أمي ابنة شيوعي من «كليشي لاغارين»، تزوج من مناضلة يوغسلافية من أصل كرواتي. ذهبا ليستقرا في زغرب حيث ولدت أمي. في الثامنة عشرة من عمرها، تزوجت من شاب قادم من شمال يوغسلافيا وبعد الحرب..

- أعرف، جاءا إلى الاتحاد السوفييتي، إلخ. ولكن، قل لي بالتحديد: الفرنسية، هل ستكون قادرا على تعليمها؟

- أنا؟ ولكن، هذا كأنك تطلب من مايكل أنجلو أن يعيد طلاء مطبخك. أكتب قصائد بالفرنسية، أحلم بالفرنسية، أغني بالفرنسية، إذا أردت..

كان متقدما على طرف كرسيه، منتفخ الصدر، فظنّ الحاكم أنه سوف يشرع بإنشاد شيء ما مثل «المارسيلية».

- اسكت! واكتفِ بالرد على أسئلتي؛ هل بإمكانك تعليم الفرنسية، نعم أو لا؟

- نعم، متى ترغب أن تبدأ؟

- ليس لي، لابنتي، أقرّ الحاكم وهو يخفض بصره.

ابتسم الرجل الصغير ابتسامة هازئة، كاد الحاكم أن يذعر منها، ولكن الأوان كان قد فات عن التراجع. قُدِّمت له كو-مين في اليوم التالي.

توجب في البداية الانصياع لمتطلباته الأولى. أسكنوه في مبنى الخدم، لكن كان لديه غرفته الخاصة. طلب ملابس ملائمة «على الطراز الأوروبي»، أعاد الحاكم إصلاح إحدى بدلاته التي يلبسها للاجتماعات الرئاسية.

حين شاهدته كو - مين للمرة الأولى، مستحما ومعطرا، ومسرِّحا شعره بعناية، يرتدي بأناقة طلقة البدلة التي يغلق أزرارها أعضاء الحزب الشيوعي الروسي دوما حتى الأعلى، لم تشك للحظة واحدة إلا بأنه فرنسي. أثناء المحادثة الأولى، بحضور والدها، بدا جديا إلى حد التطرف، لا بل سلطويا. وضع على الفور قواعد صارمة لتعلم لغة.. شرح، يجب مراعاة المراحل وعدم محاولة العمل بسرعة كبيرة. لا شيء أكثر ضررا من دراسة غير منتظمة. فرض على تلميذته بإصرار أن تستخدم حصريا المستندات التي سيسلمها إياها عند كل درس. وعندما يحين الوقت، سوف يزودها بالكتب والصحف الفرنسية. بانتظار ذلك، لا يجدر بها أن تحاول التزود بها تحت أية ذريعة كانت. كان الحاكم الذي ينظر إلى الفرنسيين كأناس لا نفع منهم، مغرورين وشهوانيين، توجّب عليه أن يقبل بأن هذا الأستاذ يعرف عمله. أكدّ بأنه سوف يسهر شخصيا على ألا تصل إلى ابنته أية دعاية غربية من دون علم أستاذها.

- أشدد بشكل خاص على المحادثة، كما أننا سوف نبدأ في الحال.. «اسمي أندريه».

كانت تلك أولى الكلمات التي تسمعها كو-مين بالفرنسية، واضطربت من جرّائها.

- اسمي كو - مين، تفوهت بحذر كمن يمشي حافي القدمين فوق درب منثور بالحجارة القاطعة.

جعلها أندريه تعيد العبارة عشـــر مـــرات إلى أن لفظتها دون خطأ. ختم بالقول بأنها تتقدم بسرعة. بكت الصبية من الفرحة طوال الليل.

على الرغم من النفور الذي كان يشـــعر به تجاه المهاجر، كان والدها ممتنّا له لأنه أعاد الفرحة إلى ابنته، اســـتجاب بســـرعة إلـــى كل طلباتـــه، تركزت في بدايـــة الأمر على دروســـه. صار بوســـعه، ودون أية رقابة، مراســـلة مكتبة في بودابست بإمكانها أن ترســـل إليه لوازم التدريس الآتية مـــن الغرب. كانت هنغاريا بلدا من الكتلة الســـوفييتية، وبالنتيجة مراقبة جدا. قدّر الحاكم أن باســـتطاعته الموافقة. فيما بعد، استأثر أندريه لنفسه بسلعة نـــادرة، آلة تصوير ناســـخة، كان يحضّر بهـــا الكتيبات الصغيرة المأخـــوذة عن كتب وصحف يحتفظ بهـــا تحت القفل، وبها كانت تلميذته تدرس.

غير أنه كلما ازداد تقدم كو-مين، بدا أستاذها واثقا من نفسه أكثر. طالب بالســـكن أقرب إليها، خُصصت له غرفة في الطابق نفســـه، في طرف الجناح الذي كانت تشـــغله، تطل نافذتها على قمم الثلوج التي ترى في جنوب العاصمة.

عندمـــا أتى الربيع، انتقلا إلى دراســـة الطبيعـــة ومفرداتها. طالب أندريه بســـيارة، كان يقودها بنفســـه وهو يدخن والنوافذ مفتوحة على آخرها. بمظهره العابث، وعينيه البرّاقتين، ولفافته الدائمـــة المرفوعة على مقبضة عنبرية بلـــون الذهب، كان يبدو أنيقا.

في تلك الفترة تقريبا، كان استسلام كو-مين له، الحق يقال، كانت منذ اللحظة الأولى مستعدة لذلك، حيث إن الإعجاب الذي تكنّه له كلّي لا تضع حدودا له. ما كانت تسـميه «فرنسيا» ليس لغـة فقط، إنما حريـة، نعمة، باختصار، حضارة تصبو لتسـلم نفسـها إليها بكليتها. لم يعد بوسـعها أن تحلم بتلقين أجمل في الحياة مـن الانفتاح دفعة واحدة على رجـل وعلى الثقافة التي يمثلها. قدّمت الطبيعة إطارا للعناق الأول، بعيدا عن جواسـيس والدها، فوق تلّ يطل على المدينة.

مرت ثلاث سـنوات على هذا النحو، مليئة بالحب والدراسة، صارت كو - مين تتحدث الآن بطلاقة، وكانت تحلم باسـتمرار، لكن أحلامها بدأت تتخذ مذ ذاك أشكالا محسوسة أكثر وأشبه بالمشاريع. أسـرّت لأندريه بأنها ربما ستتمكن من إقناع والدها بأن يسـمح لهما بالسفر إلى فرنسا، بمناسبة زيارة رسمية على سـبيل المثال، وما إن يصلا إلى هناك فسـيتركونه دون إعلامه. كانـت قد ادخرت بحجة جمع القطـع الذهبية حصّالة صغيرة، منذ الثامنة من عمرها، خبأت هذا المال في صندوق من خشـب الأرز. في إحدى الأمسيات، أرتها لأندريه، كانت سعيدة من رؤية عينيه تبرقان.

- هل تعتقد أن هذا كاف لشراء شقة في باريس؟

أكّـد لها أندريه أنها كافية، فقفزت إلى عنقه. بعد حين، أعلن لها بأنه فكر مليا بأنّ الرحيل سـويا سـوف يكون مسـتحيلا مع الأخذ بالحسبان المراقبة التي كانا تحتها. كان يستحسن أن يعبر إلى الغرب هو أولا، ويحضّر كل شيء كي تتمكن من ملاقاته. كان ذلك في بداية ربيع سنتهما الرابعة. سهّل الحاكم قدر استطاعته

رحيل الأستاذ، وهو مسرور لرؤيته يغادر أخيرا. أمّن له أوراقا بولونية، وتأشيرة دخول إلى ألمانيا الفيدرالية، ومنها سيتمكن فيما بعد من الرحيل إلى فرنسا. أما بالنسبة إلى كو-مين، فقد أعطت صندوقها الأرزي إلى أندريه كي يشتري بيتهما المستقبلي؛ رفض في البداية، ثم -تحت إلحاحها- انتهى به الأمر إلى القبول.

بكت بعد رحيله لثلاثة أيام دون أن تخرج من غرفتها، ثم كفكفت دموعها وانتظرت. كانت اللغة الفرنسية رفيقتها الوحيدة، تقرأ وتعيد قراءة الكتيبات التي صنعها لها أندريه، كل درس يحملها إلى مرحلة مختلفة من حبهما. كانت تلبس على الطراز الفرنسي، وتدخن جاهدة تقليد خفّة أندريه وترفعه. مضت الشهور، لم يأتِ، ولم تتلق أي خبر قط.

استحال عليها التصديق بأنه قد هجرها، كانت مقتنعة بأن الحاكم يحول دون وصول رسائل أندريه، حدثت مشادات مريعة بين الوالد وابنته. ذات يوم، وبعد أن أنهكته اتهاماتها، انتهى به الأمر إلى القول لها بأنه بعد رحيله بوقت قصير، تلقى عن الأستاذ المزعوم تقريرا دامغا من الشرطة.

- إنه سارق ومحتال، حكم عليه تحت هويات مختلفة بسبب الغش باللعب والنصب، يبدو أنه لدى رحيله من هنا، فرّ إلى جنوب أفريقيا حيث يعيش الآن مع زوجتين. عندما رأيت التقرير، تساءلت أيضا فيما إذا كان يتكلم الفرنسية.

استقبلت كو - مين هذه الحقائق بقهقهة عالية، أندريه لا يتحدث الفرنسية! يا للمغرورين المساكين، يا للبرابرة الصغار! كانوا ينهالون على رجل لا يصلون إلى كاحله، ليس لديهم أية فكرة عن حساسيته وثقافته!

كانـــت القطيعـــة فورية وكلية ما بين الابنـــة والأب، تألم من جراء ذلك أشـــد الألم، قام بجهود حثيثة كي يتقرب منها، دون جـــدوى. وبما أن المصائب لا تصل فرادى أبدا، كان على الرجل المسكين أن يجابه اضطرابات روسيا التي تهدد سلطته. لحسن الحظ، كان يبشر ذلك الشغب بعهود لصالحه على الأغلب. لقاء بهلوانات سياســية دقيقة، نجح بصون سلطته، وكانت الفرصة فـــي أوجهـــا، حتى إنه نجح بتجســيد ضرورة الاســتقلال عن روسيا. بالنسبة إلى ابنته، ترى تلك الأحداث فرصة لا أمل فيها بإمكانية الرحيل. كانت الســتارة الحديدية ترتفع ببطء، كانت واحدة من أوائل الأشــخاص في آسيا الوسطى الذين استفادوا من الســماح بالسفر إلى فرنســا، وها هي الآن في باريس منذ ثلاثة أيام.

لم يكن لديها أدنـــى فكرة عن مكان أندريه. والحق يقال، بما أن الوقـــت قد مضى دون أن تتمكن من أن ترســـل له أخبارا، لم تعد تأمل شـــيئا، ولكن أقل ما يمكن، كانت راضية لأنها انغمست أخيـــرا في الثقافة التي قدمها لها.. من هنا كان ســـبب ارتباكها الجسيم. لم تكن تفهم شيئا ولا أحد يفهمها؛ كانت تعيش كابوسا.

منهكة مـــن اعترافها، تكومت الكيرغســـتانية المســكينة في مقعدها، خيم صمت ثقيل فوق الغرفة المنكوبة.

- أتســـاءل حقا أي لغة علّمها هذا الحقير، ختم الســـيد بول وهو يهزّ رأسه بأسى.

أثناء تلـــك الحكاية الطويلة، كان قد التـــأم جمع صغير دون صوت عند مدخل الغرفة؛ شـــرطيان، ثلاثة مسعفين نفسانيين، وفي الصف الأول، رادعة الكل، فيرجيني فتاة الغرفة.

- لا أفهم ما الذي يجري، تدخّل المفتش الذي كان ينتظر منذ وقت طويل اللحظة للدخول إلى مسرح القضية. هذه السيدة تعلمت الفرنسية، وماذا بعد؟

- بعد هذا، إنها تتكلم شيئا آخر. اسمعوا!

عن طريق ترجمة الروسية، طلب من كو-مين أن تقول بضع كلمات «بالفرنسية»، هذرت الفتاة المسكينة من دون اقتناع مقطعا طويلا لم يفهم منه الشرطي شيئا.

- أنا من بروتون، وكل ما أستطيع قوله لك، هذه ليست لغة سلتية. أنت ماذا تقول يا دانييل؟

كان حارس الأمن الآخر من جزر الأنتيل. حكّ رأسه تحت قبعته.

- وليست لغة الكريول أيضا.

لم تعد كو - مين ظاهريا تأمل شيئا. استمرت اندفاعاتها بمونولوج طويل بلهجة محزنة، تلقيه بصوت مسرحي. لا شك أنها كانت تستعيد الأوقات السعيدة التي كانت تتحدث فيها تلك اللغة مع حبيبها ولا يجرؤ أحد على مقاطعتها.

فجأة ومن آخر المدخل وصل همس، كان أحدهم يحاول التقدم، إنه ثالث مسعف، شاب بالرداء الأبيض، على صدره مشبوك بطاقة صغيرة كتب عليها «متدرب». كان محتجزا في الصف الثاني، تنحنح، وبدأ يتكلم بصوت مكتوم، جمدت الكيرغستانية، ومثل طير في الغابة يميز من بعيد رجرجات سلالة جنسه، أصاخت السمع وقد استنار وجهها بالأمل.. كانت تلك اللغة نفسها.

رأى الشاب الطريق يفتح أمامه دفعة واحدة، وتقدم حتى وسط الغرفة. كانت قامته قصيرة جدا، وبدأ شعره الأشقر

يخفّ، لكن سلوكه كان واثقا يعطي انطباعا بالوقاحة والاستهزاء بالحياة.

صار الحــوار جزلا الآن بين كو-مين وبينه. جرت محادثة حقيقية لا يمكن فهمها بشــكل كامل من قبل الآخرين، ولكن، من نبرتهما، كانت تدلّ على اللقاء الســعيد. استســلم المدير متأثرا بالمشــهد المســرحي المباغت، أما المفتــش فكان أقل تساهلا.

- هل تسمح بالقول أخيرا أية لغة تحدثها بها؟

توقف المسعف الشاب، وقال بلهجة الضواحي الفرنسية:

- الهنغارية، تتحدث بها بشكل جيد جدا.

- وأنت، لماذا تتحدث بها؟ ســأل الشرطي منقادا لمهنته لدى رؤية مشتبهين في مكان واحد.

- والديّ من يوغســلافيا، تنتمي أمي إلــى الأقلية الهنغارية القويفودين، علمتني لغتها حين كنت صغيرا ولا أزال أتحدث بها في المنزل.

هكــذا، ليــس فقــط لم يعلــم الأســتاذ المزعوم الفرنســية لكو - مين، بــل علمها، عوضا عن ذلك، اللغة الأوروبية الوحيدة التي لا تشبه أية لغة أخرى. ولن تنفعها على الإطلاق كي تتحدث الإنجليزيــة أو الألمانية أو الفرنســية الحقيقية.جففت كو - مين دموعها ونهضت، توارت في غرفــة الحمام، صاحت عبر الباب شيئا ما بالهنغارية، ردّ المسعف ضاحكا، كانت لا تزال في الداخل وهو مســتند إلى الباب، اســتمر حوارهما المليــء بالمرح لوقت طويل، فجأة، فتح الباب وخرجت كو - مين، كان يصعب التعرف إليها، شعرها مســرّح جيدا، تبرّجت بذوق، بدت جميلة تقريبا،

ألقت على الغرفة نظرة متعالية، أوشكنا على الظن بأن الشرطي والمدير هما من ضايقاها.

قالت كلمة ترجمها المسعف.

- سوف يدفع والدها ثمن كل هذا، ليوضع في حسابها، وتريد أن تنقل أغراضها إلى غرفة أخرى.

- سيكون ذلك، قال السيد بول.

ثم تقدم نحو الشاب وأخذه جانبا.

- الآن، عاد للتحدث بصوت منخفض، علينا حتما التكلم مع هذه الفتاة المسكينة، يجب فقأ الدمّلة، وإلا فسوف يتكرر الأمر، وتدمّر غرفتها الجديدة كما خرّبت هذه.

- ماذا تريد أن تقول لها؟

- ولكن.. يبدو لي أنه من واجبها أن تكون على بيّنة فيما يتعلق باللغة التي تتحدثها.

اقتربت كو-مين من الباب، نظرت ناحية الشاب وهي تقطّب حاجبيها، ثم أشارت له بملاقاتها.

- هذا لا ينفع.. أظن، تمتم المسعف.

- لا ينفع!

أمسك السيد بول بذراع الصبي، وقاده إلى الجانب قليلا، نحو النافذة.

- لماذا هذا لا ينفع؟ أية تفسيرات قدمت لها؟

- اهدأ سيدي! لا شيء خطير.

- أجبني.

عدّل الشاب وقفته ورمش بعينيه.

- قلت لك أنا ابنٌ لمهاجرين، وصلت إلى هنا حين كان عمري

سبع سنوات، أعرف ماذا يعني أن يكون المرء غريبا في بلد.

- ادخل في الموضوع مباشرة.

- الموضوع، هو أن اللغة لا تصنع كل شيء، هل ترى، قد تكون تتحدث بها بطلاقة وتكون مبعدا.

- أوافقك الرأي، قال السيد بول على مضض.

لم يكن يحبذ كثيرا هذه الاتهامات للضيافة الفرنسية. هل هذا خطؤه، في نهاية الأمر، فيما لو ولد بعض الناس في مكان آخر؟ لكن الشاب بدد كل غيظه بإطلاقه ضحكة ملؤها الجرأة والشباب.

- أردت القول ببساطة إنه يمكن للمرء أن يكون مستبعدا هنا وهو يتحدث اللغة و.. ويمكن أن يشعر بأحسن حال دون معرفتها!

كانت كو - مين بجانب الباب قد عيل صبرها.

- تريد هذه الفتاة أن تتحدث اللغة الفرنسية، عاد وقال متوجها إلى المدير، وهو يحدق فيه هذه المرة بجدّية، لقد بذلت جهدا كي تتعلمها، يجب ألا نحزنها، سينتهي بها الأمر ذات يوم وتفهم الوضع، أما الآن، دعها تستمتع بسعادتها.

اقترب السيد بول من محدثه، وتقارب وجهاهما حد الملامسة، تلاقت نظراتهما كشفرتين.

- ماذا قلت لها؟

- الحقيقة.

تقبل الشاب نظرة المدير الشريرة للحظة، ثم انفجر ضاحكا، وقال بصوت عال متخذا رجال الشرطة شهودا عليه.

- ماذا تريد، لم يعد هناك فرنسية حقيقية في أيامنا هذه!

هذا مؤسف حقا، لم تكن محظوظة، لقد وقعت عند وصولها في أيدي أناس، أنت، فتاة الغرفة، هؤلاء السادة من الشرطة، تتحدثون مزيجا مريعا، وما عدتم تفهمون اللغة الكلاسيكية التي علموها إياها.

- لحسن الحظ، أنت هنا!

- في خدمتك! قال الشاب بتعجب وهو يقلّد تحية من عهد لويس الرابع عشر. الآن، اسمح لي، يجب أن أتركك، علي أن أريها .. بلدي.

ذهب وانضم إلى كو-مين عند الباب مبعدا بتهذيب الجمع الصغير الذي كان يحتشد في مدخل الغرفة، شقّا طريقا نحو الرواق، لاح للمدير أنه يشاهد كو - مين تمسك الشاب بيده.

حل صمت مزعج داخل الغرفة، لم يستوعب رجال الشرطة تماما ما الذي حدث للتو. كانت فيرجيني فتاة الغرفة تتباكى وهي تعيد ترتيب الغرفة عن غير اقتناع. بدت الدبلوماسية الروسية التي كان يرتجف كل جسدها مثل شخص مذعور شاهد شيئا لا يجدر رؤيته ويخشى من محاكمة ذكرياته. صاحت بعض الكلمات بالألمانية التي تفتقر إلى النحو.

- أنا واجبي حالا أن أرسل رسالة سفارة؛ الأب يريد أخبارا عن ابنته، ماذا أقول أنا؟ ماذا؟

في تلك اللحظة، ارتأى السيد بول أن الوقت قد حان كي يكون فوق الحدث. قال بصوت حازم:

- قولي له ببساطة، سيدتي.. إن ابنته سعيدة في فرنسا.

الغارقون

حدث اكتشافي في صباح باكر؛ كنت أتخيل هذه اللحظة منذ وقت طويل، لكنني كنت أجهل أي شــكل سيتخذ الحدث، ولأنني كنت أخشاه، كنت بانتظاره.

في كل صباح، ومنذ أكثر من أربعين عاما، أخرج من بيتي كي أسبح في المحيط. أذهب إلى هناك دائما عند مطلع الفجر الذي يبزغ تحت مرتفعاتنا في الساعة نفسها تقريبا كل العام. غادرت المنزل مدثرة بمئزر أزرق وأبيض. أمام منزلنا الشــاطئُ صخريٌّ، يجدر الســير خمســين مترا لبلوغ الخليج الرملي الصغير الذي منح اسمه لمكاننا؛ خليج القرصان. ساعة وصولي إلى حافة المياه، تكون الشــمس بالكاد قد لامســت الأفق، ترتفع أشجار النخيل وكل الغطاء النباتي في المنطقة ببطء نحو السماء، بينما الغيوم، حين يكون هناك غيوم، وهي المتعبة من السعي وراء القمر طوال الليل، تســتلقي فوق الأفق وتتحمص على نار الشــمس. ألقيت بمئزري فوق الرمال ومشــيت عارية حتى المياه، في تلك اللحظة بالتحديد، رأيته.

لاح لــي من ظهــره، فلقد كان يتطلع إلــى البحر، أقصر مني بقليل، كتفاه عريضان وذراعــاه مفتوحان، تراجعت من الخوف، كان يصعــب تمييز لونه وهــو بعكس الضوء، كان خيالا أســود

مرتسما فوق الأفق المتوهج فحسب. بعد مرور الخشية الأولى، دنوت ببطء متعمقة بدوري داخل البحر، حتى إنني تجاوزته كي أراه من الأمام. كلما ازداد اكتشافي له، ازداد يقيني بأنه ليس سوى تمثال، الاضطراب فوق العادي للحظة الأولى حل محله عندئذ خوف بشري أكثر تعقلا لم يتوقف عن التعمق منذ ذلك الحين.

هل أجرؤ على القول بأنه جميل رغم كل شيء؟ المرفقان مثنيان واليدان مضمومتان بأصابعهما الممدودة في وضع الصلاة، الرأس جلف للغاية، نتعرف فورا على الرواسم التقليدية: العُمرة المدببة، الأنف الأفطس، العينين اللوزيتين الكبيرتين، كان ذلك بالتأكيد الإله شيڤا، إنما شيڤا شعبي، عادم الجمال، لا يذكّر سوى بالخرافات، المادة التي نحت منها لم تساعد الفنان بالتأكيد على صنع التفاصيل، كانت من تلك المواد البركانية الرمادية التي تشكل أرض جزيرتنا، كنت أفضّل لو أن المنحوتة صنعت من الخشب، من المعدن، ما أدراني! هي المأخوذة من الحمم البركانية، كانت تبدو كأنها انبعاث لجزيرتنا الصغيرة، مما خفف من سمتها الغريبة غير الشرعية، والمثيرة للاشمئزاز.

ارتفعت الشمس بسرعة، كنت لا أزال أتأمل الآلهة الهندوسية التي حطت هنا أثناء الليل، عندما أضاء الساحل كله. كان يُرى ناحية الجنوب هياج الموج يطيّر زبده عند رأس «الغارقين»، وداخل اليابسة كان نقش من الظلال ينمِّق اللون الأخضر البراق للغطاء النباتي. ربما كانت تختبئ فيه أعين فضولية، كانت تلك ساعة استعادة مئزري، تدثرت به وقفلت راجعة، قمت بذلك وأنا أرتعد، متجمدة كما في أيام الشتاء الجنوبي، عندما تلفح رياح

باردة آتية من القطب الجنوبي. مع هذا، لم أكن قد تبللت تماما.

وصلت إلى البيت، كان والدي قد بناه لي في سنوات الستينيات وأنا في العاشــرة من عمري. كان بعيد النظر، إنها فيلا بسيطة من طابق واحد، واجهاتها الزجاجية مفتوحة على آخرها دائما، يعبر الهواء الغرف محملا ببعض الطراوة، حتى في أشــد الأيام قيظا؛ بحســب اتجاهه، يكون إما معطرا برذاذ البحر أو مفعما بغبار طلع الداخل. حول هذا البيت، كان كل شيء جامحا، البحر الذي يضرب صخور الشاطئ، الشمس التي تسحقنا طوال العام، والحرارة الرطبة.. مع هذا، في هذا المكان الهندسي، حيث تلغى كل القوى المتضاربة، يبلــغ الهدوء كثافة لا مثيل لها. الأجدر بي أن أقول، كانت تبلغ، إذ إنه من الآن فصاعدا، كان الهدوء هنا.

فــي الأيام العادية، أذهب إلى المطبخ المفتوح على كل الجهات في الصالة والشرفة، أشرب القهوة بمفردي، وأدع إثارة السباحة تذهب عني. بعد ذلك، أذهب لإيقاظ زوجي من أجل الفطور؛ هو فرنسي، ولد في أوباني، سبح في الخلجان خلال طفولته، ولكن لهذا السبب، لا يعرف ما تعنيه الجزيرة.

أحتفظ بذكرى واضحة عن اليوم الأول الذي أحسســت فيه بشكل جســدي ما كانت عليه جزيرتنا المســوّرة، كان والدي قد هيّأ الســيارة، سيمكا فيرســاي كبيرة، جوانبها مطعمة بالكروم ومقاعدها من الجلد الصناعي الأزرق، أصعدنا إلى داخلها، أخي وأختــي وأنا، كان ذلك في وضح النهار؛ كنا ذاهبين أخيرا للقيام بدورة كاملــة في جزيرتنا، اتجهنا صوب الشــمال عبر طرقات صغيرة تتلوى بين حقول القصب. من رؤوس إلى خلجان، أمضينا النهار نتفرج على كل شــيء. وفي المســاء، دون أن نستدير قط

إلى الخلف، ألفينا أنفسنا في منزلنا. صارت براهين المسألة بالنسبة إلينا معروفة؛ نحن نعيش في مكان مغلق، محاط بالمياه. منذ ذلك اليوم، لم نتوقف عن النظر إلى البحر وإلى جزيرتنا بتناوبات عنيفة تتراوح بين الحب والكره.

نختنق حينا من هذا السجن المائي، نكره البحر الذي يفصلنا عن العالم. إنه الزمن الذي نريد فيه السفر ومغادرة الجزيرة وملاقاة باقي البشر، مررنا جميعا بهذا. وحينا آخر، نرى في البحر حاميا لنا يحفظنا من شرور الخارج. تأرجح كل واحد منا لزمن طويل ما بين الموقفين. فيما بعد، شيئا فشيئا، تباطأ رقاص الساعة، وذات يوم، توقف. من كانوا في البعيد عادوا، ومن بقوا شكروا السماء؛ إنها السعادة التي بلغتها منذ عشرين سنة، وهي التي تحطمت هذا الصباح.

دخل زوجي إلى المطبخ دون أن أسمعه، ألفاني واقفة، ويداي متدليتان، عيناي شاردتان في التيه ناحية الخليج، انتفضت حين قبّلني.

إيريك رجل لطيف، تزوجنا منذ أكثر من ربع قرن، ورحل أولادنا كلهم للدراسة في الخارج. إنه الإنسان الوحيد الذي يفهمني دون الحاجة إلى التفوه بكلمة، سأكون مصيبة أكثر إذا قلت بأنه يعرفني، حتى ولو كان يدرك مشاعري وهمومي ورغباتي، لكنني على قناعة بأنه لا يحس بالواقع مثلي. تمثّل الجزيرة بالنسبة إليه جزءا من عالم واسع قرّر أن يجوبه حين كان في العشرين من عمره، طاف المحيطات، وبالمصادفة التقى بالحب؛ أي أنا. استقر في الجزيرة، وأنشأ فيها عملا. في حقيقة الأمر، كان بإمكانه أن يكون في مكان آخر، بينما أنا ليس

لي سوى هنا. وصلت عائلتي في القرن الثامن عشر، كان من بين أسلافي فرنسيون وإنجليز وهولنديون وبلاطقة، ولكن قبل كل شيء ما كان يميزهم هو قسم الجزيرة الذي استقروا فيه. بالنسبة لشخص يعيش على الساحل الغربي، كان سكان الشرق والهضاب الوسطى غرباء حقيقيين.

شعر إيريك في الحال بأن هناك شيئا ليس على ما يرام. أنا التي كنت أنشط في الصباح، كنت كالمشلولة، لدرجةٍ لم أقوَ معها على أن أشرح له ما حصل، قلت له ببساطة: «اذهب إلى الخليج». لبس سروالا قصيرا وذهب.

مهما كان قرارنا في ذلك اليوم، فقد فات الأوان للشروع بأي شيء. ذهبت لأجلس في الصالة معطية ظهري للبحر، عاد إيريك في تلك اللحظة.

- متى فعلوا ذلك؟ صاح.

كان يبدو غاضبا، كما يحدث عادة، شعرت بسوء تفاهم يتسلل خلسة بيننا، كنا نتحدث عن الحدث نفسه، لكنني كنت متأكدة بأنه لا يعطيه المعنى ذاته مثلي. بالنسبة إليه وصول هذا التمثال هو نزاع جيران، قضية حماية مواقع، مثلما يمكن أن يحدث فجأة على ساحل «الكوت دازور»، أو في أي مكان آخر. هل كان يفهم أن الأمر بالنسبة لي كان بكل بساطة نهاية العالم؟

إن كان علي أن أكون أكثر دقة، يجدر بي القول إن هذه نهاية النهاية، لأنني في الحقيقة، لو قيّمت حياتي على هذه الجزيرة وحتى حيوات أسلافي، لم يفارقنا الشعور التدريجي للزوال، وهو إحدى نتائج نهاية حيزنا. في كل فترة من التاريخ حين كانت تمتلئ شيئا فشيئا، وتستقبل السكان الجدد، كانت تتسارع

اللحظة التي سينتهي فيها كل شيء. يصعب فهم هذا على القادمين من اليابسة، الخلو بالنسبة إلينا هو الطبيعة والغنى والحياة، والامتلاء هو استنفاد كل شيء والفقر والموت.

- نظرت جيدا، (أردف إيريك وهو ينضم لي في الصالة ومعه فنجانا قهوة) وُضع في الرمال مباشرة.

أدركت حالا ما ينوي فعله. خطرت على بالنا الفكرة نفسها في ثنايا خواطرنا المختلفة بالتأكيد.

- هل تظن بأنه ثقيل؟ سألت.

- لا، إنه من التراب البركاني الفقاعي، اثنان سيكونان كافيين.

- أنقوم بذلك الليلة؟

ابتسم لي. نهضت وجلست إلى جانبه، وأحطت عنقه بذراعي، لم نعد شبابا، لا بل بوسعي القول إننا نكبر في السن. يتخذ الحب بيننا طبيعة مؤلمة تقريبا أجمل من فترة شبابنا. لم يعد ما نتقاسمه الصحة والجمال والقوة إنما متاعب العمر، القلق من الزمن القادم، والذكريات الجميلة والبشعة التي صاغت حياتنا.

الأسطورة الكبرى على هذه الجزيرة هي أسطورة «بول وفيرجيني»، لا يمكن للمرء أن يكون عاشقا هنا دون أن يفكر بهما. كنا نريد نسيانهما، لكن نصبهما هناك على بعد بضعة عشرات الأمتار من منزلنا كان يذكرنا بهما. أثناء الليالي العاصفة في موسم الأعاصير، كنت أضم إيريك لي، كان كل شيء يطقطق في المنزل، تعبره الرياح صافرة، وسعف النخيل المقتلعة تضرب الشرفة، كنت أتخيل نفسي داخل السفينة مع بول وأنا فيرجيني، أشاركهما المشاعر، كل شيء قوي في استحضار ذكرى العاصفة، لكل شيء مذاق لا نجده في أي مكان آخر على الإطلاق: الخوف

من المـــوت، الطعم المر لرذاذ البحر، العطـــور اللاذعة الآتية من اليابسة.. أهلٌ هنا، البيض هم جميعا أولاد غريق.

ابتداء مـــن اللحظة التي اتخذنا فيها قرارنا، ســـارت الأمور نحـــو الأفضل. لم أظن قط بأن يوما يمكن أن يكون بهذا الطول، تناولنا الغداء على الشـــرفة وانشغل ذهني بتحضير وجبة كاري معقدة.

عنـــد الخليـــج كان هناك قلة مـــن الناس كالعـــادة ابتداء من منتصف النهار، لا يوجد قرية قريبة من منزلنا، يلزم السير عدة كيلومترات للوصول إلى هنا، نحن بمنأى عن التجمعات الكبرى.

عرفت في الماضي هذا المكان الخالي تماما طوال العام. حين كان والدي يأخذنا إليه، كان يحدث أحيانا أن تكون عائلة كريولية أخرى قد أتتها الفكرة ذاتها، كنا نعرف حتما ماذا يحصل. يرفع الأسياد قبعاتهم، يتبادلون بضع كلمات، يشدون على صدّاراتهم، ويذهـــب كل منهم ليُجلـــس زمرة أولاده في الطـــرف الآخر من الشاطئ.

يقع منزلنا العائلي على مســـافة عدة كيلومترات من هنا. بعد مـــوت والدينا، ورثته أختي، إنه منـــزل كبير على أعمدة. صهري وهو صياد كبير، وضع تذكارات غنائمه داخل القبو مع مجموعة أسلحته. توجب عليهم تصفيح الأبواب ووضع أجهزة إنذار دفعة واحدة. عندما كنا صغارا لم يكن يغلق باب البيت قط. في الأيام التـــي كنا نذهب فيها إلى الشـــاطئ كنـــا نصطحب الجميع، من الطباخين حتى الخادمات، ويبقى المنزل خاليا. يجدر القول اليوم إن الحديقة قد تقلصت وأضحت لا شـــيء تقريبا. تحيط المدينة بالبيت، في حين كان في ذلك الزمان في قلب الريف.

كيـف يمكن الحديث عن هـذا الماضـي دون أن أبدو مقيتة تحن إلى الزمن الاسـتعماري؟ لا يمكننـا اليوم أن نجيد وصف هذا المجتمع الراقي والذي كان في الوقت نفسـه يتّكل فيه على عنف العبودية، كان مترفا وبربريا، ينقسم إلى طبقات اجتماعية حادة، ومع ذلك فيه مساواة، تضيّق عليه آلاف القوانين والعادات لدرجة يسـتحيل معها الانتهاك، ومع ذلـك كان أكثر حرية مما نحـن عليه اليوم. ولادة مجتمع آخـر جعلت ذلك الذي كان قبله لا يمكن فهمه.

بعـد ولادة طفلنا الأخير، كانت لـي محاولة لكتابة رواية عن هـذه الفتـرة المغمورة، علـى طريقة «ذهب مع الريـح»، توقفت بعد مئـة صفحة، لا تزال فـي أحد الأدراج، لـم تكن الصعوبة بالنسـبة لي في الكتابة فقط؛ العقبة الحقيقية لاسـتذكار هذا العالم كانت بالحديث عنه بصيغة الماضي. إذا كان يمكن اعتباره قد اختفى، فنحن لهذا السـبب لم نخـرج منه، حين أقول نحن، أتحدث عن هؤلاء الذين هم مثلي، ولدوا فيه. كنت سـرا أنتمي إليه على الدوام، أعدنا بناءه قدر المسـتطاع، انغلقنا على ذواتنا داخل أملاكنا، رفعنا جدران الأسـوار. هربنا إلى الريف ثم إلى السـاحل، في النهاية، أوقفنا المحيط. وها نحن في بيتنا المنعزل بمواجهة البحر. عندما نلتفت نحو الأفق، نمنح أنفسـنا رفاهية التفكير بـأن الجزيرة لم تتغير. أرجأنا الغرق فقط، ثم ذات يوم عند الفجر، أدركَنا الواقع..

لئن كان زوجـي متقاعدا، لكنه كان يتابـع إدارة دكان صغير للإلكترونيات الخاصـة بالملاحة البحرية للهـواة، كانت مكاتبه عند مدخل العاصمـة، توجب عليه الذهاب إلى هناك اليوم من

أجل اجتماعات، تركتني وحيدة. عوضا عن التململ في المنزل، ذهبت إلى فندق كبير على بعد كيلومترات من منزلنا كي أتغدى فيه وأمرّ عند المزيّن. يقيم في هذه الأماكن سائحون لا يعرفون الجزيرة، ويكوّنون عنها فكرة من خلال الشركة التي تستقبلهم. كل شيء مصمم لكيلا يضطروا إلى الخروج. نجد في هذه الأماكن الخدمات الأكثر تنوعا، من صالات التدليك إلى المكتبات، مرورا بكل النشاطات الرياضية التي يمكن تخيلها. في الماضي كان يحدث أن أشرع بحديث مع السياح، لكن اليوم، جهلهم يثبط عزيمتي، يمكن أن أحتمل جهلهم للجزيرة، لكنهم يستبدلون الفضول بتأكيدات لُملمت في كتب الإرشاد السياحي. يتلون عليك المقطع الغنائي نفسه عن «التعايش المتناغم لكل الأعراق». والويل إذا اعترفنا بأننا ننتمي إلى طبقة المزارعين القديمة، يصيحون وهم يهزون رؤوسهم بمكر: «آه، نعم، الـ 2 ٪ من السكان، هؤلاء الذين يتعلقون بامتيازاتهم»، هذا إذا لم يسألوك فيما إذا كان لا يزال لديك عبيد.

نعتبر بنظرهم نظاما يطلقون عليه حكما دون أي إجراء آخر. مع ذلك، لا يبدون متضايقين من كل نظام هذه الفنادق الذي يحاكي بدقة حياة بيوتنا في عصر الهيمنة العظيم. يشغل البيض فيها الوظائف الإدارية، الأفارقة بالأردية البيضاء ينظفون الغرف، الهنود الباسمون يؤمنون الخدمة، والصينيون في المطابخ، الشواطئ ممنوعة على السكان الأصليين، بعض الصيادين فقط في قواربهم التقليدية، وهم المسجلون حسب الأصول، يسمح لهم بالتحرك أمام المظلات الشمسية كي يضفوا بعض الانطباع الريفي الملون فوق شاشة البحر اللازوردية.

لو أنني أوقفت أحد السياح الذين صادفتهم في ذلك اليوم في الفندق وشرحت له ما نحن مزمعون على القيام به لاستشاط غضبا. يوما بعد يوم، بول وفيرجيني هذان يغدوان أسوأ أعداء الغرقى الحقيقيين، سكان الجزر، أي نحن.

نحو الساعة الخامسة، التقيت وأنا في السيارة بسيل من رواد البحر الهنود العائدين من الشواطئ، يقفلون راجعين إلى داخل الأراضي. حين وصلت إلى البيت، كان الغسق يتهيأ، مناظر المغيب على هذه الجزيرة ذائعة الصيت لجمالها بحق، لشدة ما أحب الفجر، برذاذ بحره الصقع، ووعده بيوم جديد، هذا الشعور بمعاودة رؤية الشمس نقية بعد غوصها الليلي في المياه، أرى في الغسق مسرحية تهريجية مبالغا فيها. أمقت اللون الأحمر، لا يوجد عندنا زهرة واحدة بهذا اللون، ولا حتى زهرة الخيمية.

بينما كانت الشمس تغيب، ذهبت آخذ حماما وأغيّر ملابسي، عاد زوجي في هذا الوقت، هو أيضا خلع ملابسه المخصصة للمدينة كي يلبس من جديد لباسا ملائما للمهمة التي سنبدؤها؛ سروال جينز أسود، بلوزة داكنة وخفّ رياضي في قدميه.

- راجعت التقويم القمري. صاح من خلال باب الحمّام.
- وماذا؟
- سوف تكون الليلة مظلمة حتى الثانية صباحا.
- مثالي!

كنا مقدمين، للمرة الأولى منذ زمن طويل، على عمل جنائي، لا يوجد على الجزيرة وهي على هذه الحال اليوم مخالفة للبيض أسوأ من تلك التي كنا سنرتكبها. رغم ذلك، أو ربما بسبب ذلك، كان إيريك سعيدا، كنت أحب فيه هذه الطاقة وهذه الشجاعة

وهــذا الحمــاس. حمل إلى العصــاب الجزيري الحــاذق القوة الخالصة والشــديدة البساطة لشــخص لديه أفكار ساذجة عن الخير والشر.

تناولنا غداء خفيفا ونحن نلقي بين الحين والآخر نظرات نحو الخليــج. كانت الرياح خفيفة والبحر هادئا؛ مما سيســهل علينا المهمة كثيرا. شــاهد إيريك الأخبار على التلفاز، رئيس الجزيرة، هندي بمظهر بريطاني يرأس اجتماعا في وســط البلاد، وسط الجمع المتجمهر أمامه كانت تزهو بقع السواري الحمراء. طلبت منه تغيير القناة بسبب اللون الأحمر.

في الســاعة العاشرة، أخرج إيريك ســيارة الـ 4×4، ليست الســيارة الأكثر تكتما للقيادة ليلا، ولكن كان علينا التقدم أقرب ما يمكن إلى الشــاطئ دون أن نغوص في الرمال. توصل إيريك بالرجوع للوراء إلى إيصالها نحو خمســة عشر مترا داخل المياه. انتظرنــا وقتا في الظلام، كي نرى أننا لا نلمح ظلالا مشــبوهة؛ يبقى أحيانا خلال الليل عشــاق أو سكارى، هذا المساء، لا شيء كان يتحرك.

عندئــذ، خلعنا أحذيتنا ورفعنا أســفل ســراويلنا، دخلنا في المياه، وتقدمنا حتى التمثال. كان البحر دافئا وهادئا وفي الظلمة التامة، كان شيئا أيضا أكثر تأثيرا مما هو عليه في وضح النهار، كان يبدو أكبر حجما. خشــيت للوهلة الأولى أن يســتحيل علينا انتزاعه، لكن إيريك كان قد أمســك به مــن كتفيه، مال التمثال دون مشــقة، وها هو قد أصبح ممددا في المياه مثل جذع شجرة أو جثة.

– أمسكيه من قدميه. قال لي.

كانــت الكتلة البركانيــة ثقيلة، إنما ليــس للدرجة التي كنت أخشــاها، توجب رغــم ذلك معــاودة حملها عدة مــرات حتى الســيارة. كان الرمل طريا ويجعلنا نتعثر، وكان إيريك قد انتزع المقعد الخلفي، وجعل المكان كافيا لنسطح التمثال فيه.

– ليس لدينا وقت لنضيعه، هيا. همس.

عاودنا ركوب الســيارة، اتخذنا طريق اليابسة ونحن صامتان ومضطربــان من الحضور الأخــرس للإله المـــدد وراءنا. لدى الخروج من المنزل، يمر الطريق بداية عبر حقول قصب الســكر، والتي كانــت خالية بالطبع. كنت بين الفينة والأخرى ألقي نظرة علــى إيريك، كان يبقي شــفاهه مطبقة ويشــدّ على فكيه. حين يســتعد لمجابهة خطر مــا، كانت لديه ردة الفعــل هذه مثل ثور صغير.

باغتتنــا أولــى المصاعب لــدى دخولنا القريــة الكبيرة التي نمت عند تقاطع الطريق بين الســاحل والشــارع الرئيس. حين كنت صغيرة، لم يكن هناك ســوى كنيسة صغيرة يرتادها عمال الزراعة، ومشرب لبيع كحول القصب ومصلّد إطارات.

غدت اليوم مدينة هنديــة؛ يمتد الطريق بين صفين متتاليين من الواجهات ذات طابق أو طابقين، مبان فقيرة متوازية السطوح عشــوائية بشــكل رهيب، بعض الجدران مطلية بألوان صارخة، وبعضها الآخــر يغطيه بلاط الحمامات، وأخرى لا تزال متروكة عارية. يتوج كل البيوت حديد البناء، ينتصب عموديا مثل شــعر واقف، إنه هناك تحســبا لتوســع مســتقبلي لدى مجيء الأولاد الجدد.

نقع دائما في الفخ، عندما يكون كل شيء حول منزلنا مظلما

وخاليا، تكــون القرية لا تزال تعج وتلتمع بــكل الأنوار. يبدو أن الحركــة لا تتوقف فيها أبدا، إنها إحدى مزايــا الهنود اللافتة، فهم لا يرتاحون على الإطلاق. رغم الوقت المتأخر، دخلنا وسط جمع متحرك.

ونحن نســير في شــوارع القرية، كانت مضاءة بشدة بأضواء نيون الواجهات، أهملنا تغطية شــيقا، ولو - لسوء الحظ - كان علينــا التوقف وقام أحد المارة بإلقاء نظرة على الســيارة لتمكن من لمح التمثال بسهولة!

لحســن الحظ، عبرنا القرية دون أيــة حادثة تذكر. على نور آخر مصباح، لاحظت جبهة إيريك تقطر عرقا على الرغم من أن الليلة لم تكن حارّة.

علــى الطريق الرئيس الــذي ندعوه هنا الدائــري لأنه يلف الجزيرة، كانت الســيارة المندفعة بأقصى ســرعة تضجّ بشــكل خطيــر. عبرنا قــرى أخــرى دون تباطؤ، كانــت إحداها تنتهي ببناء بيتوني متوازي الســطوح يعلوه صليــب كبير؛ معبد لوثري، «أخــوة اليوم الأخيــر». رمقني إيريك بنظرة وابتســم، كنا نمزح دائما بخصوص هذه الكنيسة، كنت أقول له إننا نحن أخوة اليوم الأخير، آخر أحفاد أول الواصلين، ولهم سيكون الامتياز المؤسف بوضع حد لتلك الإقامة في الفردوس لثلاثة قرون.

كان إيريك يســخر من نظرتي إلــى العالم، على عكس نظرة النصارى. «بالنسبة إليك، كان يقول لي، الأرض أزلية والفردوس هو الذي سينتهي». لم يكن مخطئا كليا، لا بل بإمكاننا استخدام هذه الاســتعارة، هناك في الفردوس ارتكبنا ما نسميه الخطيئة الأصلية، أعنــي العبودية. لم يكن كل من بول وفيرجيني ليتمكنا

من إنجاب مجتمع البيض الناجح الذي هيمن على الجزيرة دون اللجـوء إلى هذه الجريمة. لو قارنا بـين غرقهما وقصة الخلق، يجـدر بنا أن نعلم بأن الله لم يضـع على هذه الأرض الجزيرية مخلوقـين، رجلا وامرأة، بل ثلاثـة، وكان ثالثهما عبدا. التناغم والسـلام والازدهار أشـياء ميـزت تلك الحقبـة الذهبية التي كانـت تضم جانبـا مخفيا بعناية. لم يتوقـف هذا الجزء المظلم عن التنامي ومزاحمة نورنـا. لعالم الرقيق دائما وجهان: الوجه الأمومي المألـوف واللطيف لمربياتنا وطباخاتنا ومدبرات المنزل، ووجـه عنيف وخطير للعبيد الفارين، للثـورات الدامية والإدانة العالميـة. في نهاية الأمر، اسـتبدلنا العبودية بالعمل الحر الذي بقي بائسـا على الدوام، اسـتحضرنا صينيـين، ماليين، وهنود البحـار، الذين كان عليهم أن يحلّوا محـل الآخرين في النهاية، عادت الحياة بأجمل ما يكون.

ولـدتُ فـي آخر الأزمنـة لعصر الاحتفـالات هـذا، كنا نذهب بعربـة صغيرة من بيت لآخر، شـباب غير مبالـين، أغنياء، جميلون وبيض. كنا أسـيادا، وفـي العالم المنتظم الذي نسـوده كان كل في موقعـه، لـم تكـن الطبقـات الاجتماعيـة تختلط. خـارج طبقتنا لا شيء يعنينا. كان الهنود في الحقول أو في القرى، ولكن لا أحد على الإطلاق يعيرهم انتباها، لهم مكانهم، كما لهم الأبقار في إسطبلاتهم والمعدات في مخازنهم والمحاصيل في مستودعات غلالهم.

في كل مـرة كانوا ينتظمون فيها لنيل حقـوق، كنا نترك لهم فسـحة صغيرة كمن يزيح فوق مقعـد لجار يأخذ راحته دون أن يوجه له الكلام. بقدر ما كان عددهم يزداد، كان عددنا يقل أكثر على نحو مضحـك وتقل معه رغبتنا برؤيتهم. كأننا حين نتجنب

النظر إليهم نحرمهم من الوجود الحقيقي، الشيء الوحيد الذي كان يهمنا هو الحياة الدائرة في عالمنا.

لم يكن إيريك قد قال لي شيئا، لكنني خمنت أين يأخذنا. كفرنسي هجين من مناطق متنوعة، من مور ومن كاتالان، من الباسك ومن بروتون، لم يكن لديه أدنى تصور سابق عن المجتمعات الأخرى، لا بل كان يبدي بعض الاهتمام حيالهم. وُظِّف في تلك المشاريع هنودٌ وصينيون وكل أجناس الأفارقة، بالأخص مسلمين وافدين من الساحل الزنباري. لم تكن لديه معهم علاقات تهذيب بارد ينم عنها الخوف والازدراء، والتي تثيرها طبقات العبيد لدى أرستقراطيي الجزيرة. كانت لديه القدرة على الإصغاء إليهم والضحك على نكاتهم، ومشاطرة أحزانهم ومشاركة احتفالاتهم، كان يهتم بمعتقداتهم وبتاريخهم وبلغتهم، يفعل كل هذا من دوني، إذ إنه يعرف أن ذلك يفوق قواي، وأنا كنت أغفر له هذا الافتتان كما نغفر لطفل سخافة ألعابه، فضلا عن ذلك، وشيئا فشيئا، عاد إيريك إلى رشده. لشدة ما كانت العلاقات على الجزيرة تتوتر، وبالأخص منذ أن استولى الهنود على السلطة، أُلقي بكل البيض في السلة نفسها؛ سلة المستعبدين القدامى. لاقى إيريك تجارب مريرة، شيئا فشيئا، انحاز إلى موقفي، وبدأ هو أيضا يبحث من جديد عن العزلة والوحدة، هو الذي لم يتعلق قط بشكل كبير بمنزلنا، ويراه بعيدا عن الحياة، وغارقا جدا في الطبيعة النباتية والبحرانية، بدأ يقدره، قلّ خروجه للعمل، وصار لا يرتاح إلا في منزلنا.

غير أنه منذ بدأ بمعاشرة الهنود، صارت لديه معرفة جيدة عن عاداتهم ومرتفعات أماكن عبادتهم، كنت أظن أنه يقودنا نحو إحداها.

غادرنـــا الطريق الدائري، وانعطفنا نحو الداخل، ســرنا في منطقة من الجزيرة تخلو عمليا من القرى. في غياب القمر، كان كل شيء حالكا في الخارج، أدركت من سرعة المحرك أننا نرتقي مرتفعــا طويلا، كان إيريك يأخذنا نحــو تلك المناطق الحراجية الجبلية في الوسط، والتي بالكاد أعرفها، لم تكن الأرستقراطية ترى مناســبا لها سوى أماكن مختارة، شــواطئ البحر أو النهر، ومرتفعات العاصمة عند الاقتضاء، أما الجبال الصغيرة المحايدة في الداخل غير الصالحة للزراعة فقد تركت للإهمال، بغاباتها البدائيــة. فيما مضى، كان العبيد الآبقــون يجدون فيها ملاذا، حين وصل المهاجرون الآســيويون، أخفوا فيها، على ما يبدو، كل ضروب عباداتهم.

منذ بدء الســماح رســميا بممارســة كل العبادات، حتى في أصغــر القرى، لم تفقد هذه الأماكن المقدســة من مكانتها، على العكس تماما كان الهنود بشــكل خــاص يواظبون على ارتيادها، أظــن أنهم يحافظون عليها لأمنياتهم الحميمة، يبحثون فيها عن نجــدة آلهة أكثر بربرية وقدرة من آلهة تقيم بخمول داخل معابد الإسمنت، المعروضة تحت أنظار الجميع على أطراف الطريق.

تذكرت الآن أن إيريك، منذ خمســة عشــر عاما، عندما كان شــغوفا بالحضارة الهندية، اصطحبني إلى أحــد هذه المخابئ المقدســة؛ كانت الأشجار المتراصة الجذوع تأخذ مكان الأعمدة، وتشــكل على ارتفاع عشرين مترا من الأرض قبة بالكاد تنفذ من خلالها الشمس. كانت تماثيل الآلهة الهندوسية تتوزع في المكان هنا وهناك مثل أعمال في معرض.

بدأ الهنود في تلك الســنوات الأخيرة بإقامة أماكن مقدســة

على الشـــواطئ وحتى داخل البحر، ربما كي يســـتعيدوا الإطار الطبيعـــي إنما في جو أكثر هـــدوءا، ربما كي يظهروا كذلك بأنه لـــم يعد هناك موطئ قدم واحد فـــي الجزيرة لا يمكنهم بلوغه. يبدؤون عموما، كما حصل عندنا، بوضع تمثال خفي في الرمال، ثم يأتون بتماثيل أخرى، وشـــيئا فشـــيئا يصبح الشـــاطئ مكانا مقدســـا، تتجمع فيه الحشـــود أكثر فأكثر. العيش والموت أقرب إلى آلهتهم، عجائز، مرضى، مبشرون هنود يختارون السكن إلى جوارها. كان باعة الخبز المرقوق يقيمون أكواخهم الخشـــبية في الأنحاء، كي يســـترزقوا. يغدو المكان الخالي بوقت قصير أشـــبه بضفاف نهر الغانج. منزل إحدى بنات عمي الواقع على أطراف الساحل الجنوبي، أمسى وسط هذا النوع من أماكن الحج.

انتقلت ابنـــة عمي في النهاية إلى أوروبـــا، لكنها أصغر مني بكثير، ولديها موارد ذهنية ونفسية أنا شخصيا استنفدتها..

أية أفكار يقلب إيريك في رأســـه بصمت بينما كانت السيارة تضجّ في المنحدر؟ بالتأكيد ليســـت تلـــك القضايا المجردة. لديه ذهن عملي، يحب التفاصيل التي، بحسب رأيه، تصنع النجاح في كل مشروع، أحد تلك التفاصيل خطر على بالي في تلك اللحظة.

- اذهبي إلى الخلف وغطّيه، ثمة بطانية في الصندوق، تحت المقعد اليساري.

انزلقـــت بين المقاعد ورحت أبحث عن الغطاء، كنت أرى على ضـــوء مصباحي التمثال مســـتلقيا على ظهره يبتســـم بغموض، أدركـــت عندئذ الخطـــورة. في جزيرتنا اليـــوم، وبوجود العداوة المكتومة لمجتمعاتنا، أصغر حريق قد يشـــعل الأتون، واحدة ممن يمثلـــون أقدم عائلـــة مزارعين في الجزيرة يقبـــض عليها وهي

تسرق (نعم، سوف يقال بالتأكيد تسرق، إلا إذا كان الصحافيون يفضلون كلمة «تنتهك») إلها هنديا، هذا ما سيطلق فضيحة غير مسبوقة، وإذا ما استُغل بمهارة، يمكن للحادث أن يسبب بانتقامات عنيفة، ويبرر عمليات نهب، لا بل جرائم.

كنت قد غطيت التمثال وعدت إلى مقعدي حين أوقفتنا دورية استطلاع.

كانا اثنين، مسنا وشابا، بادرنا المسن أولا، كان وجهه مضغنا، أسنانه الأمامية متباعدة، يتحدث بتعابير متكلفة، كان على ما يبدو رجلا أرهقه النظام القديم، من الخدم الذين يخشون أسيادهم.

– سيدي، سيدتي، طاب يومكما، هلّا تتفضلان بإظهار أوراق السيارة، رجاء؟ وأوراقكما، لو سمحتما.

بينما كان إيريك يخرج الوثائق المولجة داخل واقية الشمس، كان الرجل يلقي نظرة على حجرة السيارة. كنت بالتأكيد قد نسيت إحضار جواز سفري، هذا أمر لا يمكنني تصوره؛ أن يتوجب علي التزود ببطاقة هوية على الجزيرة، استقرت عائلتي فيها منذ زمن طويل، وأنا مشهورة جدا لدرجة أنني منذ الطفولة، كنت معتادة أن يتم التعرف إلي في كل مكان، لا بل كانت إحدى تلك الإشارات التي تشعرني بأنني في موطني. في أماكن أخرى، كان علي أن أستمد وجودي من تلك السلطة التي يمنحني إياها الآخرون والتي تدعى هوية. هنا أنا موجودة بشكل طبيعي كما البحر وحقول قصب السكر، لكن هذا الزمن قد تحول، وأنا خُدعت.

بالنسبة إلى إيريك، مرة أخرى، كان قد فكر في كل شيء، أخرج جوازينا من جيب قميصه، قام الرجل وهو يعاينهما

بانحناءة خفيفة برأسه، كان اسمي قبل الزواج يعني له شيئا، فانحنى أمام ما كان يمثله بالنسبة إليه، لسوء الحظ، في اللحظة ذاتها، وصلنا صوت الشرطي الشاب العدائي، كان يدور حول السيارة رافعا مصباحه إلى النوافذ، قال شيئا ما لزميله بالهندية.

تسارع نبض قلبي، أدركت بأنني لم أفكر فعلا بشيء، لا بالدوريات على الطريق التي شاعت أكثر فأكثر منذ راحت زمر الجانحين تمارس القرصنة في الريف، ولا بضرورة تقديم تفسير لوجودنا في عز الليل في مكان يبعد كل هذا البعد عن منزلنا، لقد رمينا بأنفسنا في فم الذئب.

- إلى أين أنتما ذاهبان؟ سأل الشرطي العجوز الذي أرغمه عداء زميله الشاب على اتخاذ لهجة سلطوية.

ماذا بوسعنا أن نجيب؟ تطلعت ناحية إيريك، ولدى رؤيته هادئا وطبيعيا، شعرت تجاهه بعاطفة جمّة، لقد استبق كل شيء.

- ثمة كنيسة أبعد قليلا، هل تعرفها؟

- لا.

- هذا ليس غريبا، يجدر البحث عنها. في الحقيقة، هي كنيسة صغيرة مبنية على رأس جبل صخري وسط الغابة، يوصل إليها مشيا بمدة نصف ساعة.

كان الشرطي يتنفس فاغر الفم، قاطعاه العلويان يرفعان شفته ويمنحانه هيئة أرنب كبير مسالم.

- هناك قوة في هذه الكنيسة، (تابع إيريك) قوة كاملة في الحقيقة، يقال بأنها تشفي أمراض النساء، لكن يجب الذهاب إليها والصلاة ليلا قبل بزوغ القمر.

ألقى الرجل ناحيتي نظرة، كان لديه حسن اللباقة فلم يسأل المزيد.

- أفهم. قال وهو يغمز بعينيه ببطء.

كان إيريك عبقريا! رغبت في تقبيله، لكن الحارس الشاب لم يترك ارتياحي يطول، عاد نحونا، وبطريقة فظة لها علاقة بالأعراف الجديدة للجزيرة بالتأكيد، صاح بنا:

- ماذا تنقلان في الخلف؟

لقد وقعنا، شعرت بالعرق يغرق ظهري، الانتهاء بالخزي، لن تسامحني عائلتي أو ما تبقى منها على ذلك. رحت أتخيل الدعوى، الحملة الصحافية، الحقد.

بدا إيريك مرتبكا أيضا، لكن ذلك كان حذاقة مذهلة.

- لا شيء. قال مضطربا.

- كيف لا شيء؟ يوجد شيء ضخم تحت غطاء.

التفت إيريك وتفحص الحجرة بطبيعية تامة.

- ماذا ترك، مرة أخرى، هؤلاء الوقحون؟ برطم.

ثم التفت نحو الشرطيين وشرح لهما مبتسما:

- أنتما تفهمان، هذه سيارة المتجر، فضلت أخذ هذه على سيارتنا، فهذه الـ 4×4 للطرقات المحفرة، هناك في الأعلى من أجل الوصول إلى الكنيسة..

- أنت لا تعرف ماذا تنقل في سيارتك؟ اعترض الشرطي الشاب بلهجة ازدراء ساخرة.

- هذا صحيح، لا شك أنني رئيس متسامح جدا، في الواقع، أترك رؤساء عمالي يستخدمون ناقلاتنا عندما يحتاجون إليها، أخشى أنهم يديرون أعمالهم الخاصة فيها، ولكن لا فرق عندي

طالما يقومون بعملهم بشكل جيد.

- ماذا يصنّع مشروعك؟ سأل الشرطي الأكبر سنا.

- لا نصنّع شيئا، ننقل ونبيع إلكترونيات خاصة بالسفن؛ مسابير، GPS، مذياعا، أشياء من هذا النوع.

- ابن أختي الصغرى يعمل هناك أيضا، اسمه كومار..

- هل يمكن أن تفتح الصندوق، صرخ الأصغر الذي نفد صبره.

- كومار.. انتظر، ثمة كومار في فريقي، أنت تعلم، أستخدم الكثير من الهنود، ويختلط علي الأمر بأسمائهم، هو رجل في الأربعينيات تقريبا؟

- لا، لا أظنه هو، كومار لا يزال ولدا.

كان الشرطي وهو يتحدث قد تفحص أوراقنا بإيجاز، أعطاها لإيريك مبتسما.

- شكرا لعدم إيقافنا أكثر يجب ألا نتأخر، إذا أردنا رؤية ظهور القمر.

- الصندوق..

- هيا، قاطع الشرطي الذي أسكت زميله بيده الممدودة كمن يقطع عليه الطريق.

كان الآخر غاضبا، لكن النظام التراتبي بلا شك قد حرمه من كل وسائل الاعتراض على قرارات من هو أعلى منه. انطلقنا دون انتظار احتدام النقاش، لم ننبس بكلمة لوقت طويل. بعد حوالي الكيلومتر تقريبا، ركن إيريك السيارة على جانب الطريق، أسند جبهته على المقود ونفخ بعمق.

- كنتَ رائعا. قلت له.

ابتسم لي، وما إن صار مستعدا للقيادة عاود الانطلاق. لم نكن بعيدين جدا، كان الطريق يتلوى في الجبل، فجأة ظهر طريق مستقيم وفسحة طويلة، أدخل إيريك الـ4×4 متراجعا تحت نوع من أقواس النصر الخشبية التي كانت ولا شك تميّز مدخل المعبد.

تم كل شيء بسرعة كبيرة، تضاعفت قوانا عشر مرات أكثر بسبب الخوف، كانت تلك اللحظة الأصعب. استطعنا بصعوبة بالغة تفسير وجود التمثال في السيارة، ولكن لو قبضوا علينا ونحن نحمله بأنفسنا، فسوف يكون من المستحيل إلقاء المسؤولية على عاتق موظفي المتجر.. بدا لي شيئا أقل وزنا بكثير مما كان عليه على الشاطئ. كان الهواء المنعش منشطا، ركّزنا الإله بين صحبة طيبة، وسط مجموعة من خمسة أو ستة تماثيل تخفي العتمة معالمها. حفر إيريك التراب الطيني قليلا وغرس التمثال بشدة، لم نلاحظ أنه ثُبّت على عجل، سيبدو وجوده كتقدمة جديدة وفاء لنذر.

وصلنا إلى البيت في الرابعة صباحا، لم نتوقف عن المزاح والضحك في السيارة، مع هذا آوينا إلى السرير دون أدنى نية للنوم، طلع الفجر وذهبت آخذ حمامي الصباحي في البحر، كان الخليج خاليا من جديد، لم يبقَ أي أثر للزيارة المرتجلة للإله الهندي.. بول وفيرجيني انتصرا.

ليفهموني جيدا: أنا لا أدافع عن النظام القديم، حين كنا أسياد الجزيرة، كل ما أطلبه، هو أن أحتفظ من حولي بحصّة أخيرة من هذا الماضي، كي أستمر بتنفس هوائه، من دونه لا أستطيع العيش. هذا الحيز هو بيتي وخليجنا، لا أحتاج شيئا آخر غيرهما.

كانت رحلتنا الاستكشافية الصغيرة بمثابة ولادة جديدة، أصبحت أعيش منذ ذلك الحين كل دقيقة بكثافة. مرت عشرة أيام، عشرة أيام من السعادة المتجددة، مثل الهدوء قبل العاصفة، لم يكن لمبادرتنا الصغيرة ظاهريا أية عواقب، لم نتلق زيارة الشرطة، وهذا يعني أن لا أحد قدّم شكوى. لم يحدث أي تجمع عند الشاطئ، أو أي توتر بين زوار الموقع الاعتياديين. كنت أشعر بالاطمئنان كليا، تراخى اهتمامي ولم ألحظ في الأسابيع التي تلت جلبة السباحين الذين كان يزداد عددهم نهارا ويتأخرون مساء على الشاطئ بشكل خاص، لم ألحظ الشاحنة المتوقفة عند حدود الرمال، تناولنا عشاءنا لمساءات عديدة على الشرفة ولم تثرنا أية ضجة مشبوهة. في الليلة المشؤومة غفوت تهدهدني رياح الغرب، تلك الرياح التي تجعل أشجار النخيل تصفر وترفع معها ستائر الزبد عاليا.

إلى أن أدركت في آخر لحظة أنني كنت أطأ رمال الخليج، مكان شيڤا الذي أبعدناه، خلال بضع ساعات ولكن بعد تحضير طويل دون شك، نصب معبد كامل. استخدمت صخور منقولة من الساحل كأساس يحمل جدران مسبقة الصنع مغطاة بطلاء بالكاد جف وملطخ بالرذاذ. وسط الحرم المقدس، المضاء بنافذة صغيرة مفتوحة من جهة البحر تسمح بمرور نور الفجر، جاء شيقا آخر، ومعه جانيش وبراهما وڤيشنو وأربعة أو خمسة آخرون.

ها أنا أسمع الآن من داخل اليابسة قرع طبول، ومئات المشاعل المتلألئة. كان الزياح الهائل يتقدم، للاحتفال بولادة

النهار وتكريس المعبـــد الجديد، كان الجمع الهندي يصل من كل حدب وصوب، هادئا، ثابت العزم، منتصرا..

كتبت هذه الصفحات في غرفتنـــا الفارغة، الأثاث قد رحل، سمّرت عوارض خشـــبية على كل النوافذ، ذهب إيريك لتسجيل الحقائـــب في المطار، لحســـن الحظ، لم ينتبـــه بينما كنا ننتقل، بأننـــي احتفظـــت بأحد مسدســـاته، عندما ســـيمر لأخذي في الساعة الثامنة، سيكون قد فات الأوان.

ملجأ ديلبييرو

في مرتفعات دولوميتي الجبلية التي يتنازع عليها الإيطاليون والنمساويون، لا يشبه تسلق الجبال ما هو عليه في أي مكان آخر من جبال الألب. حمل النمساويون إليها عزمهم وجسارتهم؛ تنتشر طرقات عمودية فوق المنحدرات الأكثر ملاسة. لكنّ الإيطاليين بمساهمتهم هم أيضا بمنافذ مهمة خففوا عناءهم بأناقة وحب للحياة وحبور لا تشعر بهم في أي مكان أفضل من الملاجئ.

حين تعود من وحشة الصخور، تستقبلك في الحال روائح البولينتا والريزوتو. لا تزال الموائد الخشبية على شكلها التيرولي، تغدو جزيرية حين يظهر عليها طبق باخر من السباغيتي المحضر على طريقة الأماتريشيانا، تستقبله صيحات التهليل. بعد بذل الجهد وقهر الضجر ومحنة الخوف وأحيانا نهاية العاصفة، كان أعتى متسلقي الجبال يختلطون بالسياح الذين بمعظمهم صعدوا حتى موقف السيارات. ارتدوا على ارتفاع خمسين مترا معطف الفراء الذي اشتروه غاليا جدا من محلات كورتينا دامبيزو، لكن الحكاية التي يروونها منبهرين عن عملهم الباهر هذا غالبا ما تكون استعراضية أكثر من حكاية رواد الجبال الأشاوس.

لا يغتاظ منهم أحد، لا.. بل يبدو الرياضيون راغبين بمراعاة

مكانتهم كما يليق بهم. أكثر من مرة، وراء صخرة حيث لا يزال منعطف في الدرب يخفي المأوى، شاهدت متسلقي الجبال منهكين، سود اللحى، مسجّي الأيادي، يتوقفون للحظة، يلقون بحقائبهم ويسحبون من أحد الجيوب مشطا ومرآة كي يعيدوا ترتيب شعرهم قبل الدخول.

ظل الكثير من الفرنسيين غرباء عن هذه الروح المحلية ومتشبثين بالخلط ما بين الشجاعة والقساوة، الجدية والكآبة، الإرادة واليأس. عن وعي أو لا هم أوفياء للشعار الكئيب «من أجل الوطن، عبر الجبل»، يسبب ذلك أحيانا حوادث صغيرة مزعجة لا نعرف فيما إذا كان علينا وصفها بالمأساة أو بالمهزلة، مثل تلك التي تخطر على بالي اليوم.

في تلك السنة، ذهبت مع أحد أصدقائي للتسلق في منطقة «باسّو فالساريغو». بعد أسبوع من السباقات، قررنا معاودة النزول إلى الوادي كي نرسل البريد ونشتري الطعام. فيما بعد تأخر الوقت للصعود مجددا إلى أحد نُزُل الجبل، ولم يكن أمامنا خيار سوى قضاء الليلة في القرية من حيث تموّنّا. كانت بمثابة مركز تزلج شتويّ وبعض الفنادق تبقى مفتوحة كل الصيف، لكنها كانت تقريبا فارغة. المطعم البسيط الذي دخلنا إليه للعشاء كان عمليا خاليا، باستثناء رجل مسن يجرع حساءه وحيدا قرب إحدى النوافذ.

كان الرجل قصير القامة، لكن قامته الرياضية كانت تنم عن حالة جسدية ممتازة. له لحية غير عادية، وتكشف بالأحرى عن نقص في العناية. كان هذا مُدهشا لشدة ما كانت ملابسه مناسبة. الحق يقال، ثيابه المضحكة تطلبت بلا شك الكثير

من البحث، إذ إنها عدّة متسلق جبال حقيقية من سنوات الثلاثينيات. يلبس كل شيء؛ القميص الواسع ذا المربعات، الكنزة الصوفية ذات الجدائل، وبنطال النيكرز المضموم تحت الركبتين بأربطة، جوارب جاكار وحذاء تسلق من الجلد المشمع بشكل رائع. كان يمكن أن يوضع وسط متحف التسلق في شامونيكس ويظنه الناس دمية تمثال «أرمان شارليه» بعد أول عبور له إلى قمم الشيطان. ونحن بسترتنا الجلدية وفرائنا القطبي أحسسنا بأننا عصريان على نحو مبتذل للغاية. رد على نظراتنا الفضولية بنظرة احتقار، هذا على الأقل ما ظنناه قبل أن نتأكد من أنه كان ببساطة غاضبا.

بدا كل شيء يكدّره؛ فهو يأكل بحنق، ويقطع خبزه كمن يخنق حيوانا لا حول ولا قوة له. أعاد قطعة اللحم التي وجدها سيئة الطهي وهو يقوم بحركات التهديد نحو النادل. كنا نسمعه يغمغم ويعبث بحمالة المفاتيح المتدلية من عنقه والمعلقة بحبل جبلي صغير.

كانت تحركاته تخلق جوا خانقا داخل الصالة الفارغة. تقف صاحبة المكان والخادم بحذر خلف المشرب مثل مصارعي ثيران مختبئين بحماية سياج. لم نجرؤ على الكلام لكثرة ما كان يصغي إلى كلامنا، لكن ثرثرته وحيدا لاحت لنا باللغة الفرنسية، أدركنا أن صاحبة المحل أجلستنا دون شك قربه لتهدئته لأنها عرفت أننا مواطنوه. بعد كأسين من نبيذ آستي، استرخينا ولم يعد هناك شيء يمنعنا من معاودة الحديث عن سباقات النهار، الهبوط الشاق، العاصفة التي لم تظهر في نهاية الأمر، إلخ.. كنا قد نسينا جارنا عندما مال نحونا.

– أنتما فرنسيان على ما سمعت؟

كان مزاجه العكر يضفي على السؤال صيغة فظة ومهينة تقريبا.

– نعم، وإن يكن؟

ردّ رفيقي على الرجل، ولدهشتي الكبرى، باللهجة نفسها. كانت عبارته لا تترك مجالا للشك بأنه يرغب بصفعه على وجهه. كانت هذه الوسيلة الأمثل إذ تابع الرجل بلطف أكثر.

– سمعتكما تتحدثان عن «ساس باردوي»، أحب أن أعرف إذا فيما إذا كان طريق «ميكيلوزي» سالكا حاليا.

«ساس باردوي» جبل يسهل بلوغه كثيرا. تخطُّ سطوحَه العديدُ من طرق التسلق، وصعود ميلكوزي تقليدي، ولم يعد دارجا إلى حد ما، فيه أحد تلك المعابر الطويلة المكشوفة التي يؤثرها القدماء كثيرا، لكنّ المتسلقين العصريين يفضلون تجنبها، الطريق الذي تسلقناه لم يكن بعيدا جدا عنها.

– إنه بحالة ممتازة، (أجبت)، مثل كل مجموعة الجبال في هذا الوقت.

هزّ الرجل رأسه. لا يزال عكر المزاج، لكن بما أن غضبه ليس موجها إلينا بادرت بسؤاله بدوري:

– هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

نظر إليّ بريبة، لم أحسب تهوّر سؤالي، لمست عنده أكثر النقاط حساسية.

– أعود غدا. أقرّ بتكشيرة تنم عن الألم.

– يا للخسارة، (علّق رفيقي)، إقامتك في نهايتها..

– إذا أردت، (قال هازئا)، وصلنا قبل البارحة.

يبـــدو أن هذا الموضـــوع أثار انزعاجه، وارتأيـــت أن من باب الحيطة تغييره.

- هل سبق لك أن تسلقت الميلكوزي؟ سألت.

- نعم ســـيدي العزيز، تســـلقته في العام 1959، لم تكن قد ولدت على الأرجح، كان يعتبر في ذلك الوقت سباقا صعبا.

- لا يزال.

- شكرا، أنت نبيه.

كانت الابتســـامة التي ارتسمت على شـــفتيه الرقيقتين لأول مرة، طبيعية وهادئة تقريبا.

- كان وضعـــي الجســـدي ممتازا في ذلك الوقت، ومشـــرفو اتحـــاد الجبل العالي يعلقـــون علي آمالا كبيـــرة، أقول هذا دون تبجح. رشحوني من أجل حملة وطنية إلى الهمالايا. في النهاية، دعنا لا نتحدث عن الأمر بعد الآن..

كان يخنق بين أصابعه إحدى المالح التي كانت موضوعة على الموائد على شكل عربة تزلج.

- منذ اثنتين وثلاثين سنة لم أعد أتسلق.

- حادث؟

- إذا أردت، (قال باســـتهزاء)، لكنه شـــيء شائع جدا، يسمى الزواج.

كنـــا منهمكين جـــدا بالتهام طبـــق الضلوع كي نـــرد. في كل الأحـــوال، كنا لا نعرف ماذا نقـــول له، لكن الرجل كان قد اندفع ولم يكن بحاجة إلينا كي يتابع.

- كانـــت زوجتـــي طالبة بعلـــم الآثار، لم تكن تمارس تســـلق الجبـــال، لكنها لم تكن ترغب بشـــيء أكثر من التعلم، إلخ.. قمنا

بجولات وبعض السباقات الصغيرة، كان لدي ضعف، إذ ظننت للحظة بأنها يمكن أن تحب تسلق الجبال..

هزّ كتفيه. أحدثت كسرة خبز بين يديه صوت كسر عظم فخذ.

- ما إن ولد ابننا، تمسكت بهذه الحجة كي توقف كل شيء. مع التاليين، لم يكن بالإمكان أن يتحسن الوضع.

- كم ولدا أنجبتما؟

- ثلاثة، صبيّين وبنتا، هم أكبر سنا منك، أراهن على ذلك. ابنتي هي الصغرى، عمرها ستة وعشرون عاما.

بفم ملآن والكأس في يدي وافقت بصمت. كان عمري خمسة وعشرين، ورفيقي أقل بسنتين.

- ظننت في البداية أن بالإمكان تقسيم العطلة، ينال كل منّا القليل مما يعشقه. خمسة عشر يوما على البحر، ومثلها على الجبل مثلا، ولكن في المرتين اللتين ذهبنا فيهما إلى جبال الألب لم أستطع الابتعاد عن عربات الأطفال. فضلا عن ذلك، للقيام بماذا؟ ومع من؟ فضّلت في النهاية قضاء كل العطل على كرسي للتمدد على البحر. على الأقل، لم يكن هناك تحت ناظري قمم تستخف بي. تابعت عملي في الإدارة، والد جيد، زوج جيد، تقييم جيد من رؤسائي، حتى التقاعد في السنة الماضية، تقييم جيد جدا، مع سطر وحيد في عمود المعدّل: خلال اثنتين وثلاثين عاما، لم تطأ قدماي الجبل.

فهمت أكثر غرابة زيّه؛ الجوارب، سروال النيكربوكر، كان كل شيء قديم الطراز لأنه كان من ذلك الزمن، كان حزام بنطاله ضيقا قليلا ولم يغلق آخر زر.

- لكن، هذه السنة (صاح بهيئة انتصار مزيف)، كانت أخيرا ساعة العودة الكبرى.

رفع كأسه وشربه دفعة واحدة، أراد ملأه مرة جديدة لكن إبريق خمره كان فارغا وكذلك إبريقنا. نادى الصبي.

- أحضر لنا زجاجة جيدة، هيا، نبيذ باردولينو مثلا. هل تحبان الباردولينو؟ يحبان.. حسنا، زجاجة وثلاث كؤوس، دعونا نحتفل بعودتي الكبرى إلى الجبل.

على الرغم من مرح لهجته، لكنّ رجع كلامه كان كئيبا، وكنا نخشى ما قد يتبع ذلك.

- اسمي روجيه ساند، (أردف)، تذكر جيدا هذا الاسم؛ إنه اسم رجل انتظر اثنين وثلاثين عاما كي يعود إلى الجبل، ولن يعود إليه أبدا بعد الآن.

تبادلت وصديقي نظرة حائرة، كانت الأمور تسير على نحو سيئ.

- أخيرا، هذا العام، كانت كل الظروف مؤاتية؛ ابننا الثاني، تزوج في العام الماضي من فتاة لم أستلطفها كثيرا، لكنها رياضية جدا، وتسعدها فكرة الذهاب إلى دولوميتي. قبل إنجاب الأولاد، عليهما استغلال ذلك. بما أن هذا الابن هو المفضل لديها، وافقت زوجتي بالتأكيد على الانضمام إلينا، مع إيحاءات بالتضحية بالتأكيد. ابنتي التي كنت كسبتها إلى جانبي منذ وقت طويل، لا.. بل قامت بدورة تدريبية على التسلق في الجالانك، لحقت بنا، إنها ليست أكثرنا موهبة، فهي مصابة بالربو. وحده ابني البكر الذي لديه مشكلات في عمله، بقي في نانت حيث يقيم.

جاء النادل مع زجاجة الباردولينو يحمل منشفة في ثنية

ذراعه، أذاق بتوجس هذا الزبون الذي ليس في الحسبان، تلقى استحسانه بابتسامة ارتياح عريضة.

- لنشرب نخب رحلتنا، قال جارنا الكريم.

قرعنا كؤوسنا ونحن في غاية الحبور لأننا تحوّلنا عن الحديث، ورحنا نعلّق على نوع النبيذ، لكنه ما لبث أن عاد إلى قصته.

- إذا، ها نحن نرحل، زوجتي، ابنتي، أخوها وزوجته، أخذ الجميع أماكنهم تحت إمرة الدليل الواثقة. رفع كأسه.

- أنا شخصيا..

دخل زبونان وجلسا على مبعدة منا.

- اشتريت لهم تجهيزات كاملة، مثل تجهيزاتي تماما. لا أثق بمعدات البلاستيك التي تصنع اليوم، أما بالنسبة إلى الملابس الحالية، اسمحا لي لو صدمتكما، أراها سيئة الذوق. بالنسبة لي، الأمان والنوعية هما العرف. تخيلتهم هم الخمسة بأحذيتهم الجلدية القاسية وعكازات التسلق الخشبية، لا شك أنهم نالوا بعض الاستحسان لدى السياح اليابانيين. لم أتجرأ على السؤال: أين يباع هذا النوع من المعدات حتى الآن؟

- كان لدي ذكريات محددة للغاية عن سلسلة الجبال، كنت أعرف أن أول سباق للمبتدئين هو الصعود إلى نزل ديلبييرو، تعرفان نزل ديلبييرو بالتأكيد؟

أومأنا كلانا برأسينا.

- هذا مدهش حقا (قال باستهزاء يدل على الاستهجان)، بدأت أجد هذا الرجل يشغل البال صراحة إنما كان قد فات الأوان، كان علينا الهروب من قبل.

- ملجأ حقيقي، هذا ما هو عليه ديلبييرو، ليس واحدا من

فنادق المرتفعات تلك حيث تصل بالسيارة كي تشبع من اللازانيا. الجبل ليس للسياحة، تبا! قلت ذلك ورددته لمجموعتي الصغيرة، ملجأ يليق به هذا الاسم يستحق ذلك. يلزم ساعات من الجهد لبلوغه، ولكن بعد ذلك، يا له من سرور، أليس كذلك؟

ملأ كأسينا وجرع كأسه بعصبية. كنت أتساءل إذا كان قد ثمل، على كل حال، استأنف بشكل أقوى:

– الانطلاق في الخامسة صباحا! الاستيقاظ في الرابعة. كانوا يتأففون بالتأكيد، لكنني عدت وقلت لهم: «في الجبل، يستيقظون باكرا»، ربما لم أقلها لهم بلطف كاف إنما كي تقود زمرة عليها أن تطيع، هل أنتما موافقان معي؟

وافقناه الرأي بالرغم من أن هذه المفاهيم بدت لنا غريبة، نحن اللذان لا نفعل شيئا سوى للاستمتاع وعلى إيقاعنا.

– تم تجهيز الحقائب في الليلة الفائتة، ستة عشر كيلوغراما للرجل، أربعة عشر للنساء، بتدقيق جهاز مقياس الدينامومتر.

لم أستطع كبح نفسي من الصفير.

– هل كنتم مجهزين لتسلق إفرست أو ماذا؟

– كنا ذاهبين إلى ديلبييرو، لكن فيما بعد، كان علينا القيام بدورة لثلاثة أيام عبر الشعاب الجبلية. لم أرد لهم أن يعانوا من البرد والمطر ولا أن أخاطر بأمانهم، حرصت إذ ذاك على أن يكون معنا كل شيء؛ معاطف مطرية، مسامير الجليد، كلّابات..

– كلّابات! ولكن لا يوجد جليد هنا.

الدولوميتي جبال منخفضة تشكل في الصيف منظرا أخضر من المراعي والغابات والصخور العارية.

– لا أحد يعرف أبدا، قد تثلج فجأة.

قال هذا بخبث، فأخفضت بصري.

– وفوق هذا، يحمل كل واحد خمسة ليترات من الماء، في قُرَب.

لم أعد أجرؤ على قول شيء ورغم ذلك: خمسة!

– في البداية، (تابع ساند)، تقدموا على نحو جيد تقريبا، باشرنا بالجبهة الأمامية، ثم طلع النهار، كان المنظر مشرقا وأنا أشرح لهم عن كل شيء؛ الأزهار، القمم، الحيوانات. رغبت بأن يشاركوني سعادة وجودي هناك أخيرا. لسوء الحظ، نحو الساعة العاشرة، قطعت زوجة ابني المرح، حين سألتني السكوت قليلا للاستفادة من الهدوء. تحمّلت دون تعليق.

كنت في أعماقي أتفهم زوجة ابنه لكنني تحاشيت قول ذلك.

– عند الظهيرة، وقت الغداء، كان الجو حارا جدا، وبما أننا أصبحنا في مكان عال جدا، لم يكن هناك شجر نستظل به. مع ذلك، هذا ليس ذنبي. الوجبة سردين بالزيت وبالدهن المضاعف، بالتأكيد لم يرق ذلك للسيدات. أصررت على أن يأكلن رغم ذلك. يستهلك الجهد الكثير من الطاقة، ويجدر تناول أغذية عالية السعرات الحرارية، هذا معروف جيدا. بالغت بالعناية بهم؛ كنت أفتح العلب بمديتي السويسرية «بيريه»، أوزع المناديل، كما كنت بشكل خاص أحاول إضحاكهم قليلا بالقصص الجميلة.

كان يعترف بهذا مكرها، مع ذلك كنا نشعر بأن الجو يصبح خانقا، كما أننا لم نفاجأ بسماع البقية.

– فجأة، وقفت ابنتي وسارعت وراء صخرة كي تتقيأ، أخذت زوجة أخيها تدافع عنها وتقول إنه يجب أن نعود، لحسن الحظ، احتجت ابنتي بالرفض، كان كل شيء على ما يرام وتريد المتابعة،

كنت أعرف أنها تقول ذلــك من أجلي وكنت متأثرا، في النهاية، أخذت حقيبتها فوق حقيبتي وعاودنا الانطلاق.

كان الليــل يتقدم وأرى رفيقي يتثاءب، وأنا أيضا كنت أشــعر بــأن تعب الأيام الأخيــرة قد حــلّ دفعة واحدة، لكــن محدثنا لا يشفق علينا الآن، كما لم يشفق على عائلته وتابع حكايته.

- طوال الوقت الذي كنا فيه فوق الدرب، كان كل شيء يسير علــى ما يرام. كانت زوجتي تشــتكي من ســاقيها، ولكن مضى سنوات وهي على هذه الحال وأنا أصغي إليها بصبر كالعادة. ويا أســفاه، صارت الرؤية أقل وضوحا وتوجب علينا معاودة صعود ممر ركامي شديد الانحدار. جعلتهم يخرجون الكلابات وربطتهم بالحبال.

- ربطتهم بالحبال! في الركام.

- ولم لا؟ إنها التقنيــة التقليدية، وقد أثبتت صحتها. فضلا عن ذلــك، لم تكن لتحدث مشــكلة لو لم تتعرض ابنتي وســط المنحدر لأزمة ربو. أخرجت بخاخ الفانتولين من حقيبتي، بعد أن تنشقت ثلاث بخات، تحسنت، لم تكن أزمة كبيرة، ولم يكن ليؤدي ذلك إلى شيء لو لم يتدخل ابني، ادّعى انحيازه لأخته ولزوجته، وأعلن هو أيضا أنه يجدر بنا أن نعود أدراجنا.

- في الواقع، كان هذا معقولا أكثر.

- بالطبع لا، كنت أعرف لماذا يقول ذلك، كان لديه بثور مائية في قدميــه، ورفض أن أضع له اللصاقات الطبية مثل الآخرين. على كل حــال، كان قد فات الأوان، كنا أقرب إلى الملجأ منا إلى نقطة الانطلاق، والعودة ســتكون شــاقة جــدا. قلت له إن الكل ســيعالج عند الوصول، ولم يكــن أمامنا حل آخــر غير متابعة

السير. في تلك اللحظة، قفزت زوجته وأمسكت بخنّاقي. هل تعلمان ماذا قالت لي؟

كان نبيذ البورديلينو قد بدأ يسبب لي ألما في رأسي، فتجنبت هزّه.

- لا. تمتمت دون الكثير من الحركة.

- التفتت نحو زوجها وتدللت: «كيف يا عزيزي لا تفهم؟ لا نستطيع العودة لأننا لا نعرف أين نحن». حتى ذلك الحين تمالكت نفسي، ولكن عندئذ، ثارت ثائرتي؛ أخرجت خارطتين، خارطة الأركان العامة للعام 1951، فهي مرجع في كل الأحوال! أثبتُّ لهم بالتفصيل أننا على الطريق الصحيح، وبقي على الأكثر نصف ساعة من المشي، إذا لم نتباطأ. على هذا، عدت إلى الطريق مرة أخرى أشدّ الحبال، أمّا هم فكانوا مجبرين على الخروج من ممر الركام المضحك هذا.

في تلك اللحظة، لا أعرف لماذا خطرت على بالي فكرة وسألته:

- ولكن، زوجتك، أولادك.. أين هم جميعا الآن، لا يتناولون العشاء معك؟

- لا، هم في الفندق، ينامون، آمل ذلك..

- كيف رجعتم؟

- أنت مستعجل.. دعني حتى أنتهي.

بما أن محاولاتي لتقصير روايته باءت بالفشل، كنا مرغمين على انتظار البقية مكرهين. بعد ممر الركام وتحت الشمس طوال الوقت، وصلوا إلى وادٍ طويل فيه شلال، كانت السيدة ساند تمشي في المقدمة مترنحة؛ فقد وقعت ثلاث مرات، كانت

تعرج، ركبتاها داميتـــان، في الخلف، لم يكن الابن بحال أفضل، زوجته هي التي تســـنده. مريضة الربو المســـكينة التي كانت في الرمق الأخير، تمشـــي في آخر الموكب، يجـــدُّ في إثرها والدها الذي كان ينشد زاعقا أناشيد المسير.

- أظن أن مع مجموعة بهذه الحالة، كنت لأســـتدعي النجدة. قال بعد تفكير رفيقي الذي جعله النبيذ جسورا.

- لا مجـــال للنقاش، هذا غير مجدٍ! لكما وجهة نظركما ولي وجهة نظري، لن نغيرهما، في كل الأحوال، ما جرى قد جرى.

- تابعتم المســـير إذا؟ قلـــتُ بلهجة متهاودة، وأنا أشـــير إلى صديقي بألا يخالفه القول.

- لم يكن هذا الشيء الوحيد، صدِّقاني، كان هناك دائما أحد ما يتوقف ويصبح الأمر أصعب لدفعهم إلى الحركة. في النهاية، عملت لهم لعبة الشلال، كانت هذه آخر أوراقي.

- لعبة الشلال؟

- لا تقـــولا لي إنكمـــا لا تعرفانها! عندما تســـتنفدان طاقة الناس إلى آخرها، الأولاد بشـــكل خاص، ألم تصيحا قط بصوت ملؤه المرح: «آه، تذكرت الآن، ســـوف نصل قرب شـــلال، سيكون بإمكاننا السباحة في ماء منعش جدا»؟ تمكنت على مدار ساعة من تقديم أجمل الأوصاف للمياه النقية، إذا كان الناس يشعرون بالحر، ينجح الأمر.

- هل كان هناك شلال فعلا؟

- بالطبع لا، كنت أمازحهم.

- جعلتهم بشلالك إذا يتقدمون خلال نصف الساعة الأخير؟

- لم يكن ما يلزمنا نصف ســـاعة لبلـــوغ ملجأ ديلبييرو، في

الحقيقة، كان لا يزل على مسافة ساعتين.

- ساعتين!

كان بأسلوبه المشـــوّق قد حوّلنا إلى مشجعين، غدونا بفكرنا نقف على أطراف الطريق نشـــجع هـــؤلاء الناس الذين لم نرهم قط.

- هل وصلوا إلى هناك؟

لكن صاحبنا كان مستســلما لفكرتـــه، كانت النتيجة مذ ذاك تهمّه أقل من الطريقة التي حصل عليها. يعيد الحكاية في ذهنه ويعيش بألم كل وقفة من درب الآلام هذا.

- الشـــلال، قال بعد تفكير وهو يهزّ رأســـه، لقد كان غلطة، انتهزت زوجة ابني الفرصة، أتتخيلان! وقفت في عرض الطريق وقامت بحركة واسعة لتشير نحو الأفق، من الناحية التي صعدنا منها. كان المنحدر أملس، لم يكن هناك أي جرف صخري، أو أية طية في الأرض، لا شيء قد يخفي شلالا، رغم القيظ والعطش، لـــم يصبحوا عُميا، منذ تلك اللحظة التي أبدت فيها ملاحظتها، أصبح جليا أنني كنت أعاملهم كأغبياء. أخرجت هاتفها الخلوي وقالت وهي ترمقني بنظرة تحدٍ: «كفى الآن، ســـوف أســـتدعي النجدة».

- وأرسلوا طوافة. ختم صديقي خائبا قليلا، مثلي لكنه مرتاح لأن القصة انتهت.

- لم يكن هناك شبكة خليوي.

أطلقنـــا تأوها عاليا جدا لدرجـــة أن بقية الزبائن توقفوا عن الطعام. ســـكب لنفسه كأسا وشـــربها دفعة واحدة، كان بحاجة ليقوّي من عزيمته. انتظرنا أن يبدأ من جديد، دون أن نقاطعه.

- جلس الجميع على الأرض، خلع ابني حذاءه وراح ينظر إلى فقاعـات الماء الدامية في عقبيه، فقاعات بحجم كرة البنغ بونغ، وبدأت زوجتـي تدهن الميركروكروم علـى ركبتيها. ابنتي ترضع موسّـع القصبات، خلال هذا الوقت، كانـت زوجة ابني تضرب بأصابعها على هاتفها الخلوي علّها تلتقط شيئا ما.

- وأنت؟

- أنـا؟ قد يبدو لكم هذا من الحماقة، لكنني كنت أتطلع إلى المنظـر؛ القمم الرمادية في البعيد كأشـكال الدانتيلا، المراعي شـديدة الخضرة تلمع مثل فراء ثمين، والسـماء، السـماء التي لا تكـون كمـا هي عليه حين تصعد كي تراها. رغم كل سـنوات الغياب تلك، كنت أقول لنفسي إنني لم أخطئ، حبي لتلك الأماكن كان على حاله، كنت محقا، إذ إنني لم أنسها قط، ولم أتنكر لها.

- لكن، لـم يكن بإمكانكم البقاء هكذا إلـى ما لا نهاية، كان يجب اتخاذ قرار ما.

- نعم، شكلوا نوعا من مجلس العائلة، يجدر القول بالأحرى، مجلس حرب، وكنت أنا المتهم، طلبوا مني الجلوس والإجابة بنعم أو لا: هـل نحن قريبون من الملجأ؟ نعم. هل أنا متأكد من ذلك؟ نعـم. هل من الممكن أن نكون قد أخطأنا الطريق؟ لا. هل هناك ما يمكن أن يعالجوا به في الملجأ؟ نعم، لا.. بل هناك ما تأكلونه وتنامـون وتتصلون بالهاتف، إذا لـزم الأمر، ما إن نصبح هناك، فستتمكن من الاتصال بطوافة لمعاودة النزول.. تبادلوا النظرات فيما بينهم، ثم ساد صمت طويل، أخيرا قالت زوجتي: «نحن نثق بك يا روجيه، أنت جبلي ماهر، سوف نتابع».

تهدّج صوت سـاند عند قوله ذلك، شـعرنا بـأن هذه كانت

بالنســبة إليه لحظة عاطفيــة مؤثرة، كان يوقّع معاهدة ســلام حقيقية بعد حرب لا نهاية لها على هذه الجبهة.

– عاودنــا الانطلاق حينذاك، لم يعــد أحد يجرؤ على التفوه بشــيء، كان كل واحــد منهم يحتمل ألمه بصمــت. أعترف لكما بأنني كنت معجبا بهم وكنت ســعيدا.. أخيرا، استطعنا الوصول إلى سفح آخر مرتفع، كان الملجأ وراءه، رغم الوقت الذي انقضى، قرابة خمس وثلاثين ســنة، كنت أذكر بدقة هذا الوصول، قمت بهذا السباق مرتين في شــبابي، وفي كل مرة، كان ذلك الصخر الصواني الأخير يصعقني بجماله، ولأنه ينبئ أيضا بوجود ملجأ ديلبييرو مختبئا وراءه.

في اللحظة التي لفظ بها هذا الاســم بجزالة، بدأت شــفته السفلى ترتجف وراح يهتز بالنشيج.

– كنــا قد وصلنا تقريبا، لقد نجحوا! كنت فخورا بهم، الآلام ستُنسى بسرعة، المهم أنهم أولوني ثقتهم وكنت مستحقا لها، كل شيء سيكون ممكنا من جديد.

عند تلك الكلمات، قلص التشنج وجهه، واهتز جسده بشهقة تثير الشــجون والتمعت حواف أجفانه بالدموع، أمســك بمنديل وغطى وجهه، ثم وقف بوثبة واحدة واختفى في المراحيض.

كنــا في غاية الضيق لدرجة آثرنــا معها التواري عن الأنظار دون انتظــار عودته، لكــن الفاتورة تأخرت وكنــا لا نزال هناك عندما عاد، ووجهه مغسول وشعره ممشّط.

– اعذراني، قال بصوت عاد هادئا، أضجرتكما بقصتي، يجب أن أذهب لأنضم إلى من بقي من عائلتي، أخيرا.

رمشــت عيناه من جديد، لكنه ضبط نفســه. شــعرنا بشكل

غريب أن القصة لم تكتمل، وينقصها تفصيل أخير كي تُفهم.

– كيف سارت الأمور في الملجأ؟ هل تمت معالجتهم؟ هل تمكنتم من الأكل..؟

أخفض ساند عينيه، ثم مسح فمه بعصبية ورمى منديله فوق المائدة.

– خذا علما، (قال كمن يشتم)، في حال فكرتما باصطحاب أحدهم..

وقبل أن يختفي، أضاف:

– ملجأ ديلبييرو مغلق منذ ثمانية عشر عاما، لم يبق منه سوى الأطلال.

ليلة مناوبة

- هذه من أجل ميت. همس الصوت في الممر.

- حسنا، أزلقها من تحت الباب.

كم الساعة يا ترى؟ عبر نور مزرق من تحت الستائر الممزقة؛ كان مصباح الشارع المقابل لغرفتي يصرّ على إضاءتها. في كل الأحوال، لم يلح الفجر بعد، الشراشف من حولي رطبة، الشراشف.. كلمة مفخمة حقا للدلالة على أغطية المعونة الشعبية البسيطة، المغلية والمعاد غليها في الغسّالات الجهنمية، تستخدم بحسب الأيام، إما لفرش أسرّة المرضى وإما لتغطية موائد غرف المناوبة، يبرز بياضها زيادة على ذلك آثار الدماء والنبيذ التي قاومت المنظفات حتى صارت الممرضات يدعونها بقعا نظيفة.

- مررتها لك. قال الصوت.

وفي الحقيقة، في الفرجة التي تفصل الباب عن الأرضية، شاهدت ورقتين مجعدتين تنزلقان. حافي القدمين، ملفوفا بغطاء خشن، ذهبت حتى الباب، انحنيت والتقطت الوثائق.

- هل تعرف إذا كان فعلا مات على الأقل؟ قلت وأنا أتثاءب.

كانت يدي في الوقت ذاته تجسّ الرداء المرمي فوق كرسي تبحث عن قلم حبر داخل الجيب.

- ميـــت ثلاث مرات وليس مرة. قال جوســـتان صبي الصالة هازئا، في الجانب الآخر من الباب.

لكنني أعرف أنه كان يصلّب بيده على وجهه بصمت. لا يحب الأنتيليون المزاح بموضوع الموت، هم يخشون الفأل السيئ، ولدى جوســـتان أســـباب معقولة كي يخاف، في النهاية، حين يقبل أن يدعنـــي أوقع على هـــذه الأوراق دون أن أتحرك من مكاني، فهو يخاطـــر ويشـــاركني الخطأ. على جانبي الباب، كان هذا الســـر الصغير يربطنا.

هـــا هي الأوراق الآن مفـــرودة على الطاولة، مسّـــدتها لأزيل تجعيدها، كان ســـطحها لمّاعا علـــى نحو خفيف، انزلق رأس قلم الرصاص وأنا أملأ الفراغات المشـــؤومة لـ «بطاقة الصالة» التي يُنعم بها على المرضى الداخلين المشـــفى بجواز المرور هذا الذي يخولهـــم لكل الرحلات بما فيها الرحلة الأخيرة، ويكرس تخليهم عن ترهات هذا العالم؛ ثمة فراغ تكتب فيه أشياؤهم الشخصية وبعـــض الأغراض القيّمة (مال، ســـاعة، مجوهـــرات)، كانوا قد جرّدوا منها، الباقي اســـم، أحيانا مهنة، وبشكل خاص رحلة من جناح إلى آخر تودي بهم إلى النور والشـــفاء حينا، أو نحو المرفأ المشؤوم كما يقول الأقدمون حينا آخر.

تخطّ يدي: «اليوم الخميس، الثالث من تشرين الثاني، في..».

- كم كانت الساعة بالضبط حين مات؟

غمغم جوستان من الجانب الآخر للباب.

- أنت تعلم ما يكون عليه الأمر، (قال متضايقا)، تأكدت عند تبديل الورديات.

تشير الحالة المدنية للمريض إلى أنه «ولد في 1898»، فهمت:

عجوز معمّر، لا شك أنه لم يكن يتحرك كثيرا ولا يبدي حياة إلا من خلال تأوهات لحظة العناية به، ليس نادرا في هذه الحالات أن يكتشف موته متأخرا، حين يصل فريق جديد ويقوم بجولته.

كل شــيء طبيعي وحســب في النهايــة، وإلا ما كنت لأمارس هذا النــوع من التوقيع عن بعد حتــى الآن، تفرض علي أدبيات المهنة ألا أسجل أي حدث، أو أشهد على شيء، وبالأخص الوفاة، دون أن أكــون على اتصال مباشــر مع المريــض، أو أن أكون إلى جانبــه وفحصه، لكنني كنت أعرف أن الكثير من زملائي (إن لم أقل جميعهم) يفعلون العكــس من وقت لآخر، حين يكون الوقت متأخرا..

تعــب المناوبة هو بمثابة إكراه مفروض على الذهن والجســم، حين تنهــض ثماني مرات، مثلــي في تلك الليلة، كــي تذهب عند سرير مريض لديه أزمة ربو، وآخر عنده حالتي سقوط، وآخر لديه انســداد رئوي، وعدة نوبات ضيق تنفس، تتملــكك ثمالة حقيقية، تشــعر كأنك بائس، قذر، واهن، مشــاعر العوز النفسي والجسدي هــذه، تخلق انطباعا باللاجدوى يجعــل أي عمل، أي تدخل، أو أي رأي لا فائدة منه، إنها اللحظة التي يتربص الدنيء «ماذا ينفع؟» التي قتلت الكثير من الناس في العالم، إنها ســاعة الخطر الأعظم التي يتوانى فيها الحذر ويمكنك أن تقترف أخطاء قاتلة. لحسن الحظ، نتعلم بسرعة مقاومة هذه الإغراءات، في أوج التعب، احتراز أخير يجعلك لا تزال واعيا لهذا الخطر، ويبقى الذهن رغم كل شيء في حالة تأهب أمام المريض، أمام المريض ربما، إنما أمام ميت؟

«الثالث من تشــرين الثاني، في الدقيقة الخامسة عشرة بعد منتصف الليلة..».

وقع اختياري في النهاية على هذه الساعة المحتملة، مع ذلك، بقيــة الصيغة لا تأتي.. في لحظة كتابــة الكلمات النهائية، تلك التي تمنح لهذا الرجل نهايته مثلما منحته أمه الحياة ذات مساء ربيعي، في الرابع والعشــرين من أبريــل 1898، خانتني القوة، منتهى الصفاقة أو الإنهاك، الاثنان في الحقيقة.

- انتظرني لحظة، (ناديت جوستان)، أنا قادم.

- حسنا، (قال الصبي مندهشا قليلا)، لكن تعال بسرعة.

أراه يضرب الأرض بقدميه في المدخل المتجمد (كان باب بيت الدرج قد انخلع ذات مســاء ولا يزال يضرب عند كل هبة رياح)، لا شك أن هذا الذي يخرج من فمه بخار، هو أيضا نعس ويشعر بالبرد، لكن على الأقل ليس لديه واجبات، في تلك الســاعة غير المتوقعة لاتخاذ قرارات فادحة، تخيلته سعيدا.

ارتديت وأنا فــي غاية النعاس ملابســي المدنية التي تصبح في المشــفى لباســا داخليا؛ تبقيني دافئا لكنهــا لا تُرى، اللباس الحقيقي هو القميص، تقوم المرأة الغسّالة بتسليمك واحدا منها كل أسبوع، تختار لك المقاس وهي تقهقه: «كتفاك عريضان جدا يا صغيــري!»، كان يحق للطبيب الداخلي في ذلك الوقت ارتداء مئــزر. رفضت علــى الدوام ارتداء أحدها، علــى الرغم من أنه مريــح، لا بل أنيق كما يبدو. أن تقحــم يديك في الجيب الكبير المغلــق من الأمام، كنت أرى دائما أننا نبدو، من دون اليدين، مثل جزار، ومعهما مثل كنغر.

الترف الحقيقي هــو المعطف، لا يحق للأطباء الخارجين به؛ أطباء الداخلي وحدهم يســمح لهم باقتنائه، هكذا يصبح علامة الدخول إلى قدس أقداس الفرســان الرهبان، معطف ثخين من

اللباد الكحلي اللون يطول أحيانا حتى الكاحلين، الياقة مستديرة، ارتديته في تلك الليلة الشتوية وأتاح لي الشقان على جانبي الخصر إبقاء يدي في جيب القميص.

ها أنا ذا أسارع بالقرب من جوستان، كان المطر البارد قد توقف، لكن المزاريب ما زالت تنسكب، قفزنا فوق البرك الصغيرة.

لدى وصولنا عند أسفل البناء الذي ينتظرني فيه المحتضر (أو المتوفى، أنا من سيقرر ذلك)، وجدنا الأبواب مغلقة، كانت النوافذ في الطابق العلوي مظلمة، توجب علينا الدوران ورجّ أبواب سرية كانت مغلقة أيضا، توترت أعصاب جوستان، صاح، بعد لحظات طالت، فُتحت نافذة في الطابق الثالث ونزلت إحدى مساعدات الممرضات كي تفتح لنا، فتاة غوادولوبية بشرتها فاتحة جدا، لم تتوقف عن الابتسام حتى أثناء تعنيف جوستان لها بلغة الكريول، سبق لها أن سمعت منها لكنها تجاوزتها في الحال بإجبارنا على «عدم السير في الأماكن المبللة»، بيدها اللابسة قفاز الكاوتشوك الوردي، أشارت لنا إلى نهاية الممر الذي نظفته بممسحتها، والذي لا يزال بلاطه يلتمع لبضع لحظات، المشفى قلب لا يتوقف عن الخفقان أبدا، الوقت لا يزال ليلا ويتم تنظيفه لليوم التالي، ينتظر المرضى الفجر كي يغتسلوا. الآن دور الممرات، قمنا أنا وجوستان باستدارة لعبور المنطقة المبللة، الآثار الكبيرة لم تكن أقل، بئس المصير؛ المهم أننا أظهرنا نوعا من المراعاة تجاه عمل الآخرين، ابتسمت المرأة بتأثر.

بدأنا بارتقاء السلم داخل ما يبدو كاتدرائية هائلة معتمة، تضيئها بغموض الأنوار التائهة لمصابيح الشارع الخارجية. في الطابق الرابع، أرشدت طريقنا همسات وبضعة خيوط من

أشعة المشاعل. يشــق علي اليوم رواية هذه الذكرى لأنها تقذف بــي بدهيا إلى زمن الديناصورات، مــع هذا، والحق يقال، كانت مشــافي باريس في تلك الحقبــة (وأنا أصرّ علــى عدم رؤيتها بالبعيدة جدا..) لا تزال تنتشر فيها الغرف المشتركة بشكل كبير. عشــرون ســريرا مصفوفة على طول الجدار يفصل بعضها عن بعض مســافة ضيقة تتســع لمناضد الأســرّة، إذا كانت المشعات تدفئ لا بل تفرط في تســخين الهواء الجــاف، ذلك لأنها حلت محــل مدفأة الحطب الأثرية التي يمكننا تخيل خيالها الأســود وسط الغرفة.

احتضار البعض في هذه الأماكن المشتركة لا يبدو يعطّل راحة الآخرين، هذا إذا لم تضأ الأنوار للقيام بمراسم العلاج وطقوس الموت.

كانــت الممرضة التي اســتقبلتنا فتاة جميلة، تمســك بيدها مصباحــا، تحــرِّك حزمة الضوء فــي كل الاتجاهات، ومن حين لآخر تتوه بعض الأشــعة باتجاه وجهها، كانت ملامحها مشدودة كهــؤلاء الذين فقدوا مأوى الليــل دون أن يجدوا الراحة الفعلية خلال نهارهم.

- آه، لقد أتيتما، قالت.

لا عاطفــة ولا تمييز فــي تلك الكلمات، شــعرت فقط بأنها تصنفني في خانة غير المرئيين، وشعرت بأن الحمرة علت وجهي.

أخذتنا عند طرف السرير.

كالعادة، يكون الحقل المغلق حيث يجول الموت محاطا بالحواجز؛ حواجز قماشية، اســتعمالها الوحيد الإحاطة بالسرير، رسميا، تستخدم لإعفاء المرضى الآخرين من رؤية المحتضر، لكنني غالبا

ما تساءلت إذا ما كانت بالأحرى مخصصة لتعلم المريض بالمصير الذي ينتظره، كل من يجد نفسه فجأة محاطا بأقمشة الكريب البيضاء تلك المفرودة بشكل سيئ فوق حاملات فولاذية، يشعر بأنه غادر سلفا مكان إقامة الفانين، وأن قوة رهيبة سوف تأتي عما قريب سعيا في طلبه إلى مقام الأرواح البررة ذاك.

في اللحظة التي وصلت فيها، خرجت من خلف الحاجز امرأة أخرى تلبس الأبيض، هي أيضا كانت ترفع مشعلا، تحمل على جنبها ربطة مفاتيح ضخمة تدل على أنها ملكة خلية النحل هذه، يرتجف أطباء الداخلي أمام تلك المراقبات الشيباوات، كن يعرفن عن المريض أكثر مما نعرف نحن، وصمتهن بينما نقوم بفحص المريض يذكّر بحكم أكثر القضاة قسوة للقلوب، بالأخص إذا ما ارتسمت في الوقت ذاته على شفاههن ابتسامة غامضة.

حاليا، لم يحدث شيء من هذا، كانت تلك المراقبة تتكلم، وكي تظهر سلطتها، تفعل ذلك بصوت عال تقريبا.

- اذهبي وأحضري الملف. طلبت من الممرضة الشابة.

عادت الفتاة ومعها مغلف ثخين محشو بالصور الشعاعية والأوراق المتطايرة ونتائج التحاليل، بحثت عن بيان المراقبة الطبية.

- إنه هنا منذ اثنتي عشرة سنة. قالت المراقبة.

اثنتا عشرة سنة! لا شك أنني بدوت مندهشا رغما عني، لأنها استأنفت:

- هنا قاعة الإقامات طويلة الأمد.

رفعت وجهي لحظة؛ يمكن رؤية الدعامات في السقف، كانت القاعة أشبه بسقيفة تكوم فيها المرضى المحكومون باللاشفاء،

كنت قد سمعت الحديث عنها لكنني لم أزرها قط، في الحقيقة لا شـــيء يميزها عن غيرها عدا نهايات أطراف الأســـرة ربما وذاك الشـــيء غير المرئي: الزمن، الزمن الذي مضى داخل تلك الجدران، مثل كل الغرف المشـــتركة، هي مكان للأنين والروائح، يعقـــد الاختلاط فيهـــا روابط صداقة مولعـــة، أو على الأكثر، كراهيـــة بغيضة، تكون الأخيرة مصـــدر ارتياح حينا، أو مصدر عـــدوى حينا آخر، الجار مصدر ابتســـامة وحديث لكنه بصاق وبول أيضا، هل تترك اثنتا عشـــرة ســـنة فـــي هذا المغطس أي شيء حي في كائن ما؟ تركت نظري يجول فوق صفوف الأسرّة، راودني الشـــعور فجأة بأن كل شـــيء خاص في هذه الغرفة، لا نشعر بذلك الفضول الطبيعي الذي يجعل بقية المرضى يرقبون حشـــرجات الاحتضـــار، لا يوقـــظ وصول طبيـــب أي اهتمام، الأصوات التي تســـمع هي أصوات اللاوعي والخبل الكيماوي، لا يوجد هنا ســـوى غيبوبات، آلام لا شـــفاء منها، أموات ولكن يعيشون.

أعود للمريض لأكتشـــف في فوضى الملـــف، التقرير الطبي، حادث خطير فقري وعائي، حياة على جهاز التغذية أو ما شابه، صمت كامل، لم يتمكن أي طبيب سريري من أن يقيّم بدقة درجة الوعي التي أبداها المريض.

آخـــر ملاحظة مســـجلة باليد، حدوث التهاب شـــديد يعود تاريخه إلى أكثر من خمس سنوات.

- هل تريد رؤيته؟ سألت المراقبة.

رفضت استنباط هزء في تلك الكلمات، واقتربت من الحاجز، كان جليا أن كل شـــيء معد لما بعد، كانـــت علبة المعدات الطبية

والحقن قد أفسحت مكانها لدلاء وفُرش التنظيف، كان يُستعد للعناية بالجثمان، لكن لم يلمسه أحد حتى الآن، كان يحيط بي خمسة أشخاص، دون أن أحصي المرضى في الظلمة، والجميع عيونهم معلقة عليّ. أزيح الستار، المريض مغطى بشرشف بما فيه رأسه، تقدمت، لم أشعر قط إلى هذه الدرجة بثقل هذا الطقس الليتورجي الصامت. هذا المساء، كل شيء سيتضح، أنا من سيمنح الموت.

بحركة فجائية، كي لا أبدو بأنني أرتجف، رفعت الغطاء، ظهر الجسم بألمه المطفأ، نحيلا، شمعي اللون، دميم الوجه، الرجل هو من أولئك الذين نقول عنهم حين يأخذهم الموت: «لقد خلص».

أن يكون قد قضى هذا لا يترك أدنى مجال للشك لدى أحد، رأت المراقبة الكثير من المرضى يموتون، الممرضة الشابة أيضا، الممرضة المساعدة غسلت أجساد أكثر ممن ينام من مرضى في هذا المشفى، وجوستان الذي حملهم على نقالات يعرف كم يَزِنون، أنا الذي لا أزال في الثالثة والعشرين وثلاثة أشهر في الطب الداخلي، أجهل تقريبا كل ما يتعلق بماهية الموت البشري، انتابتني رغبة للحظة أن أقول: «لماذا أزعجتموني؟ تعرفون أفضل مني بأنه مات».

جعلني الصمت أبتلع كلماتي، لا مجال للتراجع، هم بانتظاري، هذا ليس بفخ ولا بانتقام: استدعيت للقيام بواجب لن أعرف التملص منه.

الموت في فرنسا ليس له تعريف واضح، يفرض القانون إجراءات لإثبات صحته: الفصد الشرياني الطولاني هو الأكثر إثباتا، يتم ذلك بقطع شريان المعصم باتجاه طولاني والتحقق من

غيـــاب أي نزف نبضي، مـــن غير المفيد القـــول إن هذه الطريقة لا تطبق أبدا، بالنتيجة يرتكز كل شيء على كلام الطبيب، له فقط يُعترف بالقدرة على إثبات الموت، هناك وازع لدى النصارى يمنعهم من الاحتفال بالقداس بمفردهم؛ يلزم كاهن للقربان المقدس.

هكــذا أنا، الغر، المحبحب ببثور حب الشــباب، عديم الخبرة بالكبائر، أمام كل هؤلاء الناس المتمرســة على الصعاب، ممسوح بزيــت ميرون غير مرئي يجعل حركتــي منتظرة، لا.. بل لا غنى عنها؛ أنا ذاك الذي بوسعه أن يجعل من ذلك الرجل ميتا حقيقيا، وللأبد، «أنا، لويس، ملك فرنســا، أقـــرر..»، هكذا كانت الملوك تتحدث إلى رعاياها الذين يتحكمون بحياتهم. هذا المساء، جعل مني القانون ملكا على هذا المكان البائس، لخدمة فقير له رغبة أخيرة بأن أمنحه موتا.

يتشـــكل المجتمع الطبي في فرنســا من طبقة مغلقة، أركانها العليا منذ عهد نابليون أطباء المشـــفى الداخليون، يتم انتقاؤهم بحســـب جدارتهم، على الرغم مـــن أن لمكان ولادتهم أهمية على الأقل أثناء وقت المســـابقة، وعلى أقـــل تقدير من أجل المهنة في وقت لاحق. الطب الداخلي شـــرف نحلم به طـــول العمر، يفتح المجـــال لأعلى المهام الطبية، يحمي ويكافئ ويســـتوجب، يفرض بشكل خاص ارتداء لباس التضحية، مهما كان صحيحا ما نشعر بـــه، لكن يجب عقد العزم إما على التمســـك بهذه الوظيفة وإما الاستغناء عنها.

لكل ســـر مقدس طقس خاص به، بمـــا أن القانون كما رأينا لا يقول شـــيئا عقلانيا عن الموت، توجّب ابتكار شـــيء ما، حركة تفرض على المحتفل بالقداس دورا، تعطي للســـاحر شيئا شبيها

بالعصا، عثرنا على الارتكاس القرني.

وسط هذا الصمت المخيم، قربت يدي من الوجه المشوه، رفعت جفنا ووضعت سبابتي على القرنية، غياب رد الفعل يدل على إبطال الارتكاس القرني، ذلك الذي لا تبلغه أية غيبوبة مهما كانت عميقة، نستنتج منها بأنه الموت.

الحركة ليست فقط ناجعة؛ إنها استعراضية، يقوم الطبيب للمرة الأخيرة بإعادة فتح عيني المريض، يعيد له نظرة للحظة، كي يقرأ فيها تأكيد قضائه، يصدّق المنتهك بأن الموت قد تم حين تنغلق العينان. أما الطبيب فله حرية التصرف بعكس هذا الاتجاه المتعارف عليه، تجد المأساة في هذا التصرف موقعها بشيء من العظمة.

هكذا، يمكنني الآن أن أكتب:

«في الثالث من تشرين الثاني وبعد ربع ساعة من منتصف الليل، السيد أ.ك المولود في 24 أبريل 1898 توفي».

لكنني استغرقت وقتا طويلا لإبعاد الرائحة الخفية والعالقة على عيني المريض، اليوم وبعد عشرين عاما، لا يزال يحدث لي أن أشمها.

عشاق لورنسو مارك

ثـــلاث مرات عـــاودت إغلاق باب البيت، كنت لتســـخري من رؤيتـــي أدخل وأعاود الخروج أتأكد كالمهووس بأن كل شـــيء في موضعه، بدت لي جلود الكودو معلقة على الجدران بشكل سيئ، وهناك بقع تلطخ عارضات الأرض الخشبية الحمراء.. ولكن لا، كل شيء جاهز، كل شيء ينتظر وصولك.

كان يجب النزول بضعة أمتار عن الرابية التي بني فوقها المنزل لبلوغ المرآب، يتعرج الممر بين صخرتين صلدتين ضخمتين شبيهتين بفيلـــين أحمرين بلون الرمان، لون أفريقيا. هذا الصباح، وبســـبب عواصـــف الليل، تطفو علـــى هذا الدرب رائحة خشـــب نتنة، كان التراب الأحمـــر الذي لا يزال رطبا مجدورا بحفر صغيرة حفرتها قطرات المطر على سطحه، وفي كل الأنحاء، كان الأخضر الزاهي لأعشاب السافانا يقابل زرقة السماء الصباحية. في هذه الساعة، كان يمكـــن الرؤية حتى البحر من منزلنـــا (منزلنا..!)، تحت خط الأفق تمامـــا يبرز في البعيد خيـــال العاصمـــة، بمبانيها وبيوتها الواطئة، ولكن بعد ساعة من الآن، حين تصبح الشمس في مكانها، أي ثابتة تماما فوق رؤوسنا، يغطي النور كل شيء بتوهجه.

ارتعشـــت قليلا لدى صعودي إلى ســـيارة اللاندروفر، بسبب المقاعـــد الباردة دون شـــك، لكن لدى رؤيتـــي للمدينة من بعيد،

فكرت بأنك ربما تكونين هناك منذ الآن.

هــل فكرتِ غالبا مثلمـا فعلت هذا الصبــاح بوصولنا الأول إلى هنا؟ فوق جسر السـفينة التي كانت تقلنا من «دوربان»، كنا نتطلــع إلى المدينة عند الأفق أيضـا، ولكن من البحر، كان لدينا كل دواعي الخوف من اكتشـافها، فاسـمها جعلنا نحلم طويلا؛ لـم تكن تدعى «مابوتــو» في ذلك الوقت، كانـت لا تزال تحمل الاسم الاستعماري القديم الذي منحها إياه البرتغاليون: لورنسو مارك، كانت هاتان الكلمتان الملتحمتان تعداننا بالاحتفال بالعرس الأدبي والأسطوري للوران الرائع وفيرمينا ماركيز، كنا متحابين، فلورانس وڤاليري لاربو، كانت تبدو تلك الرحلة التي طالت عبر أفريقيا الجنوبية تأخذ بنا نحو هذا المقصد الأخير والمقدر لنا.

حدث ذلك منذ أربعين سنة وكان لنا من العمر عشرون.

قبل الرحيــل، كنا قد أقمنا في أوروبا هــذا الاحتفال البالي، الــذي لم يكن بنظرنا ســرا مقدســا، وليس له معنــى الارتباط الأبدي؛ كنا نخطب، فوق درابزين السـفينة الملوث بالشحم القذر، عندما كنت أضغط على يدك الرهيفة كنت أشعر بسرور وأنا ألمس الخاتم الذي قدمته لك، كان مزينا بماسة، صغيرة مثل إمكانياتنا كطلاب، لكنها صلبة، لامعة، وصادقة لا تبلى مثل حبنا.

لحســن الحظ علا صوت هدير اللاندروفــر، وغادرني هذا الشعور الأحمق برقة القلب، شغّلت دون تفكير مساحتَي الزجاج فمدّتــا فوق الزجاج أمامي حجابا ثخينا من الغبار اللزج، توجب علي الخروج وتنظيف الزجاج العمودي. أخيرا، عشّــقت مقبض الســرعة دفعة واحدة بذراعي الأيسر، في الواقع، هل تذكرين؟ يقــودون في موزمبيق على اليســار، التأثيــر الإنجليزي.. قرأنا

كل ذلــك حينذاك؛ في نهاية القرن التاســع عشــر، لولا احتكام الجنرال بقي من الحكاية اسم البيرة المحلية ماكماهون الشهيرة، التي تسمى م.م وتلفظ: «إم»، وتنتشر بوفرة في البلاد.

عبر درب محفر، وصلت إلى الطريق العام، ذاك الذي يوصل إلى مملكة «ســوازيلاند» الجبلية، لا تبعد الحدود ســوى ثلاثة كيلومترات، لكنها مغلقة بســبب الأشــغال التي لا تنتهي. مررنا من هنا معا منذ أربعين ســنة، وأردت أن تتســلقي تلك الهضاب المشمسة، لم تكن هذه المنطقة في العهد البرتغالي تختلف كثيرا. موزمبيق من الاتساع لدرجة أنها لم تزرع كلها قط، كان لها على الدوام حتى من هنا، تلك الصورة الصغيرة لفلاة وافرة الخيرات ومهملــة في الوقت ذاتــه، طبيعية بالمجمل، مــع ذلك، لو نظرنا جيــدا على طول هذا الطريق الــذي تحف به الأجمات الوادعة، لأمكننا أن نرى آثار كل المآســي التي عاشــتها تلك البلاد خلال أربعين ســنة، سوف أريكِ مزارع برتغالية كبيرة مهجورة؛ صدئت فيها الأعمــدة المعدنية للممرات، وأضحــت النباتات الجهنمية والياســمين والستارية المتعرشــة برية من جديد تندفع منقضة على زخرفات الأرابيســك. شاهدنا كل هذا منظما في الماضي، عائلات المســتعمرات شــديدة النظافة وشديدة التقوى وشديدة البياض تســود على أملاكها الواســعة، والسود ظاهريا خانعون لدورهــم كزمرة خــدم أو كدواب، بفارق حرف يصبح «الســاكن الأصلي» «مخزيا»[1]، هنا اكتشفتِ ذلك.

مذ ذاك رحل المســتعمرون وتركوا وراءهم حربا أهلية قاتلة، رودوســيون وجنوب أفارقة، صبوا الزيت فوق النار بوعي منهم،

(1) الفارق بين كلمتي «indigene» et «indigne».

ولكن هــذه المرة لم يكن هنا ماكماهون كــي يوقفها، دام الرعب خمسة عشــر عاما. من هذا أيضا يحتفظ «شارعنا» بالأثر، في الطريق إلى مابوتو تعبر ســكة حديد غالبا ما قصفت، وســوف تتمكنين من رؤية قطار يشق طريقه داخل نهر غزته التماسيح.

تذكرت كل هذا بينما كنت أتعرج في آخر المنعطفات المؤدية إلى الطريق الســريع، ابتكار جنوب أفريقي أيضا، والذي يصل حتى جوهانسبورغ، منذ عودة الســلم، عادت مابوتو وأصبحت المنفذ الطبيعي لترانســغال، لمعادنها الخام وفحمها ورجال البوير ذوي الرؤوس الحليقة، الموزمبيقيون أنفسهم يأتون حتى «نيلسبروت» من أجل التســوق في مراكزها التجارية الكبيــرة على الطريقة الأميركية، ولكن هناك على جانبي الطريق الفائق الحداثة، حيث يدفع رسم المرور بالبطاقة الزرقاء، تسير نساء بالجلابيب يحملن السلال فوق رؤوسهن.

يغدو المنظر بعد ذلك مسطحا كليا. على الجانب الآخر لمجرى النهر ينبســط الساحل الرتيب ممتدا حتى جزيرة «إنهاكا»، تمتد وراءهــا محمية الفيلة الكبرى، منطقة لغمت على نحو قذر وقت الحرب وبقيت خطرة إذا ما ابتعدنا عن الطريق.

«إذا ما ابتعدنا عن الطريق»، شــيء مضحك كيف يســتطيع الذهــن أن يلتف حــول عبارة، قلبت أوجههــا حتى بلغت مدخل المدينة، رحت أفكر بالانعطافــات التي عرجت عليها خارج هذه الطريــق منذ أربعــين عاما، في العــام 1963 كنت عازف كمان فتيــا بارعا مثل مقلّــد مدرّب رباه أهل عاديــون مع أنهم عبروا أوروبا المشتعلة من بلدهم الأم روسيا، وكنت أنت فرنسية خالصة وشــاهدت دون شــك آخرين غيري، فقد كنت تدرســين الأدب.

كان رأسك دوما بين الكتب التي منحتك كما بدا لي حينذاك نضجا كبيرا، كنت تتحدثين عن الحب بخبرة آلاف الصفحات، لم تكن الموسيقى مجالك، ومع هذا أثّرت بي بطريقة حاسمة، المقتضيات التي فرضتِها علي ربما أنقذتني، أولها، كانت لديك القدرة الكافية لعدم التصفيق لي فقط، بل لتجعليني أشعر بضعفي وحدودي وأنبذ كل الأسباب السيئة التي أجدها كي لا أكون أفضل. بفضلك لم أحِد عن طريقي، تبعته من فيلادلفيا حتى ملبورن، مرورا ببيرن وفرانكفورت، وأخيرا باريس، امتهنت العزف المنفرد في أكبر الفرق الموسيقية، لم أصبح مشهورا ولا غنيا، لكنني تمكنت من أن أعتاش من فني ووهبت له نفسي بشكل كليّ.

عندما أرسلت لك في العام الماضي مجموعة تسجيلات لي، سررتُ جدا حين علمتُ بأنك اشتريتها أولا فأولا تبعا لظهورها، تتبعت تقدمي تماما كما تتبعت تقدمك بقراءتي كل كتاب من كتبك.

أنا المخبول من ضجيج اللاندروفر، لم ألحظ فورا بأنني دخلت المدينة، «مابوتو» ليست جميلة سوى من البحر، قليل القول إنني لا أحب الاقتراب منها هكذا من الداخل، من ظهرها نوعا ما، إذا لم نعبر بين الحين والآخر أذرع مصبات الأنهر الصغيرة التي تمتد نحوها جسور الصيادين الضيقة، تبقى ضاحية مابوتو ككل مدن العالم الثالث، ليست أكثر من مزبلة أو برصاء، بيوت واطئة حيث تختلط أكواخ أفريقية بواجهات المرائب، جدران مصمتة لمحترفات ومستودعات غلال تراثية تزاحم المكان على ريف مشوه، أشجار موز متشعبة تنادي للمساعدة وهي تخفق

بأذرعها الخضراء، لكننا نعرف جيدا أن القضية بالنسبة إليهم خاسرة، كلما تقدمنا أكثر تصبح المباني أعلى. في المركز، داخل المدينة العالية، تحف الجادات المستقيمة الجميلة أشجار العندم الهندي والأكاسيا، نشعر بأن النباتات تتخذ هيئة الاستعداد على طول الأرصفة أمام المنازل الاستعمارية الجميلة، هذه هي مابوتو العصر البرتغالي العظيم، مدينة رحلتنا الأولى.

عندما سلكت باتجاه جادة ماوتسي تونغ، فكرت بأنه سيتوجب علي أن أشرح لك قليلا عن أسماء الشوارع.. عندما رجعت للاستقرار هنا، ظننت بأن الحكومة كانت ستغيرها في الوقت نفسه الذي تركت فيه الماركسية واللينينية، كان ذلك سوء تقدير مني لمجمل هوية هذا الشعب الرائع.

كان الموزمبيقيون وهم يفكرون بصياغة وعي وطني في هذه البلاد المتعددة الأوجه التي طال أمد اختلالها، يحافظون بتأثر على كل ما يمكن أن يشكل جزءا من تاريخهم، نجد هنا شارع مارك دي بومبال تكريما للبرتغال، جادة نكروما بطل الاستقلالات الأفريقية، جادة إدواردو-موندلان الأب الروحي لفريليمو، وكل مختارات الوجوه الماركسية التاريخية، ولكن في هذه البلاد التي هي منذ الآن التلميذ النجيب للـ FMI صارت الليبرالية في كل مكان؛ فجادة كارل ماركس تعج بسيارات التويوتا، أما بالنسبة للأميركيين فمركزهم الثقافي يقع عند تقاطع جادة ماوتسي تونغ وجادة كيم إل سونغ.

هذه المدينة تشبهنا بالتأكيد؛ تخطيط الشوارع ذات الزوايا المستقيمة يمنحها مظهرا عقلانيا، لكنها تضم أكثر المباني غرابة، شاهدة على أخطاء الماضي وآماله. اليوم، كل العالم

يحاصر، سوف أريك ناطحة السحاب الصينية بسطوحها ذات الزوايا ترتفع على شكل أبراج المعابد الصينية.. تتفجر المدينة بازدهار لا يخلو من الارتياب.

على طريقتي، أشكل جزءا من هذه الحقبة الحديثة، فلقد وصلت دون أن أتوقع في ذات اليوم الذي وُقّعت فيه المصالحة الوطنية والسلام، لم يكن لذلك أهمية كبرى بالنسبة لي، فلقد كان لي سياق آخر للسلام، شخصي أكثر وحميمي أكثر هو الذي كان يقودني إلى هنا، كبر أولادي، وكما تعلمين أنا جد لحفيدين، صار الكمان أقل فأقل طاعة لأناملي التي خدرها الروماتيزم، وكلمة حق تقال، أشعر بأنني تحررت منه، لم تبقَ زوجتي معي إلا من باب العادة أو اللباقة، آن أوان الاعتراف بأننا لم نتحابب قط، حينئذ، قررت ببساطة أن أرحل.

لم تكن الرحلة هذه المرة مثل الأخريات، إنما عودة، كنت أجهل السبب لكن الأمر البدهي هنا أن هذه المدينة التي لم أرجع إليها قط ومع ذلك، كانت بانتظاري، شعرت فيها بأنني في بيتي، واشتريت ذاك المنزل عند التلال وكأنه كان مقدرا لي بشكل طبيعي.

حين وصلت إلى ساحة الاستقلال لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة بعد، قررت ركن اللاندروفر وإكمال الطريق مشيا على الأقدام. المبنى الهائل ذو الأعمدة لقصر البلدية المطل على الساحة هو النقطة الحساسة للمدينة العليا، من هنا يمكن سلوك طريق الشاطئ هذا المنتزه الساحلي الطويل الذي تحفه أشجار جوز الهند حيث ذهبنا إليه مرات عديدة نتنزه في المساء، هذا أكثر حي تغير، أصبح مزروعا بالفيلات الفخمة والفنادق ذات

الإطلالة الرائعة على البحر. هناك منزل مانديلا، يأتي ليقضي فيه بضعة أسابيع طوال مع الأرملة سامورا ماشيل، سوف آخذك إلـــى النادي المائي الذي تعرفينه ويحتفظ بســـحره قديم الطراز من خارج الزمن.

من البلدية سلكت إلى جادة أخرى، تلك التي تؤدي إلى الداخل، مـــارا أمام الماخور القديم الذي أصبح مركز الثقافة الفرنســـي. عبرت الحديقة العامة ببركتها المسماة wallas وممراتها المربعة الأوروبية الطراز، تعلو أشـــجار النخيل إلى درجة تنشر فيها فوق الأرض ما هو أكثر مـــن الظلال، عتمة. وصلت أخيرا إلى الحي التاريخي الواقع على طول الميناء، مابوتو بجسدها البالغ والهائل الكبر تحتفظ في داخلها بالمضغة التي ولدت منها، حي البيكسا هذا الذي لم يتكلف أحد العناء لهدمه أو لترميمه، تلك المؤسسة التجارية الأولى عبارة عن أربعة شـــوارع بأرصفة محفرة، تيجان أبواب مثلثة الشكل يغطيها حجر الزُليج، شرفات قديمة بدعائم، في كل لحظة تتوقع أن يخرج إليها بعض من المثاليين والكادحين، مبشـــرين وباحثين عن الذهب جاؤوا للعثور على الثروة في هذه البلاد الواسعة جدا بالنسبة إليهم.

في البعيد، عبر فتحة حوض الســـفن، أشـــاهد البحر الملون بالطمي، مطر الأيام الأخيرة جعل الأرض أكثر اخضرارا والبحر أكثر حمرة.

وصلت أخيرا إلى ســـاحة الرابع والعشرين من حزيران، تلك التـــي تطل على الميـنـــاء ومحطة القطار، المـــكان الذي جرى فيه كل شـــيء معنا، أعلى ســـلم المحطة وتحت تلك القبة المحرشفة التـــي تعلوها كـــرة الإمبراطورية البرتغاليـــة متداخلة الحلقات.

انفصلنا، ها قد مضى أربعون عاما، يشق علي رواية ما جرى، الحق يقال، أرى اليوم في قرارنا المباغت فعلا جنونيا، وأجد صعوبة بإعادة تشكيل المسار العقلاني الذي أودى بنا أنت وأنا للقيام ببادرة غافلة إلى هذا الحد. كلما أمعنت التفكير فيها أرى أثر رومانسية كنت لأظنها تعود إلى سن الشباب لو لم تسكنني من جديد. هل كان ذلك هو الإشباع من حب لدرجة لم نعد فيه قادرين على أن نكون كاملين إلا في تلك اللحظة؟ هل كان ذلك فكرة صادقة، ذريعة، رهانا مجنونا؟ الحقيقة هي أننا قررنا في ذلك اليوم أن نستعيد حيواتنا.

لم تشائي أن تقفي عائقا مهما صغر أمام المهنة التي تؤمنين بأنني مقدر لها، «لا أريد أن أسجنك داخل بيت من حديد» قلت برقّة، وأنا لم أشأ أن تحرمك جهودي وتضحياتي وغياباتي من الحب الكامل الذي آمنت بأنك تستحقينه.

ثمة ما يدعو للابتسام، ربما سيبدو هذا غير معقول. مع ذلك، اتخذنا هذا القرار المفطر للقلب والرائع، اصطحبتك إلى هذا الرصيف، جلست داخل المقطورة الخشبية ورفعت حقيبتك الجلدية إلى الرف فوق رأسك، تبادلنا قبلة طويلة للمرة الأخيرة، ثم نزلت إلى الرصيف، كان فستانك الأزرق يشكل بقعة زرقاء وسط عمال المناجم بأسمالهم الرمادية الرثة، يذهبون ليبيعوا أنفسهم في «ترانسڤال». شاهدت القطار يرحل، بعدها، سرت في المدينة هادئا على نحو غريب، فارغا تقريبا، غير عارف إن كنت سأسعد من جديد.

لا أنت ولا أنا، لم نقم بمبادرة لإزالة السحر، أن نتراجع عن الفراق، وعشنا حياتنا.

على جانب المحطة، وراء حاجز متأرجح، تطل قبطانية الميناء، ها أنا أتقدم الآن نحو ظلال أشجار المانغو، لا أحد هناك، قيل لي إن الركاب لم ينزلوا من السفينة بعد، لا أدري إن كان علي أن تسير الأمور معي ببطء أو أن أتعجلها، لأن الوقت قد أخذناه وربما لا يزال يلزمنا. حين عدتُ إلى هنا، كان ذلك معك، إنما بالحلم، كنت أشعر بأننا اشترينا سوية هذا البيت الذي لم ترَيه قط مع ذلك، مرت سنوات عديدة قبل أن أجرؤ على الوقوف في طريقك، وعلى اكتشافك، وعلى الكتابة إليك، بعد ذلك، وصل هذا الرد المذهل، تلك الرسالة التي قرأتها في أشد الفصول حرارة وأنا أرتعش؛ رحل زوجك، كبر أولادك، الرغبة لديك بلقائي.. هكذا ولدت تلك الحقيقة الجلية، بأنك مثلي، لم نفترق قط، وأنه بعد خطوبة طويلة إلى هذا الحد، آن الأوان ربما للتفكير بالاتحاد.

كان حوض السفن مستقيم الخطوط، عندما كنت أقترب من الحافة شاهدت في البعيد تجمعا حول ممر سفينة الركاب، لم أجرؤ على التحرك، لكن الجمع الصغير كان يتحرك باتجاهي، الشمس حارقة تحت غيوم بلون الرصاص والشاطئ يرتعش من الحرارة في الجانب الآخر لمصب النهر، تتقدم خيالات، يبرز أحدها لابسا فستانا أزرق، يلوّح لي، هذه أنت.

أنتِ في العشرين، وأنا أيضا.

حارس الرداء[2]

المكان الذي روى لي ريتر فيه هذه الحكاية هو آسيا، وبالتحديد أكثر في كولومبو، كنا جالسين في مشرب فندق «غول فيس».

عادة أنســى هذا النوع من التفاصيل، أتذكر هذه المرة المشهد كله بسبب حادث سخيف. في ذلك اليوم، بينما كنت أسبح خافض الرأس مغمض العينين في بركة ســباحة الفندق لامست، وعلى ما يبدو خدشــت، ســيدة إنجليزية بدينة كانت تتخبط بالقرب من الســلم، رغم اعتذاري، ذهبت تشتكي لدى مكتب الاستقبال، النظرة الساخطة التي رمقتني بها وهي تخرج من الماء كانت تدل مــا يكفي للقــول: لو أن الجزيرة لا تزال مســتعمرة، لكنتَ ذقت طعم السوط أو الحبل. فضلا عن ذلك، لم تكن إنجليزيات بركة الســباحة وحدهن من المخلفات الاســتعمارية في «غول فيس»، كل ما فيه يفــوح منه طيب رائحــة الإمبراطورية؛ الخدم الذين يعتمرون العمامات ويمشــون حفاة الأقــدام، المراوح التي تخفق الهواء الرطب في الرواق، العشــب القصيــر بأخضره الزاهي، يقلمــه أطفال نحــاف على قوائمهم مــزودون بمقصات صدئة، ومع ذلك كان ريتر يحب «غول فيس»، رغم كل شــيء، وأنا مثله،

---

(2) العنوان الأصلي للقصة: «Garde robe“ ومعناها «خزانة الثياب» أما حرفيا يمكن التلاعب بالمعنى دون الخروج عن أصل المفردات، وقد ارتأيت عنوان «حارس الرداء» لملاءمته المغزى.

كنا نلتقي فيه كل مســاء تقريبــا، أضحت هذه العادة ضرورة لنا نحن العازبين المكرهين في هذا البلد النائي.

عموما، كنت أصل نحو الساعة الخامسة، أما ريتر فكان ينضم إلي متأخرا قليلا، على شــاطئ ســريلانكا الغربي ذاك، مناظر مغيب الشــمس رائعة، من فندق «غول فيس»، كنا نرى الشــمس تختفــي داخل بحر بنفســجي يبــدو امتدادا لشــرفات الفندق المزهرة. في ذلك المســاء، كانت السماء محملة بسحب طولانية ذهبية تتخللها الأشعة الأخيرة، كانت تمنح الضوء جلالا محيرا، وصل ريتر متأخرا، كان شــديد الشحوب وطلب كأسه الويسكي منذ دخوله إلى البهو، بالكاد جلس حتى انزلق نحونا نادل ووضع الكأس أمامه، كان هذا النوع من العجلة استثنائيا تماما، ولشدة ما كان مناخ «آســيا السمراء» هذه، كما يسميه علماء الجغرافيا (مناخ أخلاقي بقدر ما هو جوي) مناخا يعاكس كل تحرك، يرخّي ويجعل الأكثر عصبية رائقا، لا بل نعسا تقريبا، كان عملي يساهم زيادة بهذا الجمود. كنت موكلا بمنح التأشــيرات في القنصلية، مع تعليمات أن أمنح أقل ما يمكن، كان الكسل بالنسبة لي بطريقة ما، الشكل الأكثر بأسا للخضوع للأوامر.

أما ريتر فقد كان يفتــرض به أن يعمل أكثر قليلا، كان يعمل لصالح الأمم المتحــدة، ويهتم بالضحايا المدنيين للصراع الدامي في الجزيرة، كانوا يســتنجدون به وقت الهجمات العسكرية في الشــمال وعندما تضرب الاعتــداءات العاصمــة، عندما رأيته مضطربــا إلى هذا الحد ظننت أن عودة شرســة للتمرد حدثت بلا شــك لم أعلم بها، ولكن بعد أن اجترع كأس الويسكي الملآن، أخذني إلى اتجاه آخر:

- هل سبق أن قابلت راهوال؟ سألني.

- كبير خدمك؟

كانت كلمة «الصبي» تفوح منها رائحة أفريقيا نوعا ما، تفرض العادة على الجزيرة أن يمنح اسم كبير الخدم المفخم والقديم الطراز على الرجال الفقراء الذين يأتون للقيام بالأعمال المنزلية والكيّ لدى الغرباء.

- رأيته مرة واحدة العام الماضي، أظن عندما ذهبت للعشاء في بيتك.

في ذلك الحين، كان ريتر قد وصل للتو واندفع في سياق الدعوات التقليدية، سياق كان يتوقف عموما بسرعة ويترك مجالا أكثر تحررا من الرسميات، مثل كأسينا في «غول فيس».

- نعم هو، لم أغيره.

كغالبية المبعدين عن وطنهم الذين يعيشون بمفردهم في الجزيرة، فضّل ريتر توظيف رجل، كان ذلك يتيح له تجنب بعض التعقيدات التي كانت تظهر في الماضي، عندما كان العازبون يستخدمون خدما من النساء، كان طباخ الصليب الأحمر قد نصحه براهوال.

- ما الذي فعله راهوال هذا؟ سألت وأنا أبتسم ابتسامة ساذجة.

غالبا ما يبدو لنا هياج الآخرين أكثر تفاهة من هياجنا، ومن السهل مواجهته بوجه مشرق.

- من يرى وجهك، (أردفت)، يظن بأنه رمى قنبلة في منزلك.

هزّ ريتر رأسه برزانة:

- قنبلة.. إذا أردت، تقريبا هذا.

حدقت في وجهه بدهشـــة، حتى الآن، لــم أرَ وجهه يتخذ تعبيرا بهذا الألم، كان ريتر أكبر مني ســنا، تجاوز الخمســين بكثيــر، ويتظاهر عادة بارتياب ســاكن، كنــت معجبا بترفعه وبهزئه وبسلاسة أحاديثه التي يعود الفضل فيها إلى مونتينيّ. مع هذا، ورغم ثرثراتنا اليومية، كنت أعرف عنه اليســير، ما عدا أنــه وصل متأخرا إلى منظمــة الأمم المتحدة، بعد مهنة فــي الأعمال، أخبرني أنــه طلّق مرتين، يتبادل الرســائل مع أولاده الذين يتابعون دراســاتهم في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية.

- ربما تستطيع أن تحدثني عنه أكثر قليلا..

بعد أن طلب كأسين آخرين، بدا ريتر قد استعاد ذاته، انتصب في كرسيه الخشبي وغدا صوته واضحا وصافيا.

راهوال نمرة حقيقية، أنت تعلم، يذكرني بحاجي بابا أصفهان؛ حِيَل ومراوغات دائما، ومع ذلك بسّام لطيف، يستحيل أن تثق به ويستحيل أيضا أن تحقد عليه فيما لو خدعك..

- تماما مثل راڤي في بيتي.

- يتحدث الإنجليزية بشــكل جيد جــدا، (أردف ريتر)، دون أن يبدو أنه ســمع ملاحظتي، نتحدث كثيرا، إذا ما احتجت إلى شــيء يصعب إيجاده، يعثر لي عليه ولا مثيل له في التعليق على الأحداث السياسية.

لا تســلم هذه البلاد من المأساة الشــرقية، مأساة الدسائس والتحالفات الخفية والمؤامــرات التي يتوه فيها الغرباء دون داع، بلاد كل ما فيها طلاســم -ابتداء من كتابة لغاتها- وستبقى هذه الفــورة البطيئة لحب الغموض ســليمة، إلا إذا حدث بلحظة ما

انفجار سيارة مفخخة ليعطي لتلك المعادلات الصعبة حلا واقعيا جدا وشديد الدموية.

- هل هو مسالم..؟ (تابع ريتر وكأنه يسأل نفسه) نعم، ومع ذلك لديه قابلية للعنف لا تصدّق، وربما دون علم منه، شاهدته ذلك اليوم يقطع عنق دجاجة بسكين صدئة، وأطال عليها عملية الحزّ هذه قرابة ربع ساعة، لا بل توقف كي يذهب للرد على الهاتف في حين كانت الدجاجة المسكينة لم تمت بعد..!

- هل هو آت من الساحل أم من الداخل؟ سألت، ليس بدافع الفضول أكثر من تذكير ريتر بوجودي.

- من الداخل، كانت أمه قاطفة شاي في الهضاب العليا، لم يعرف والده، أرسل وهو في السادسة لدى عمه في كاندي وفيما بعد إلى هنا.

- وقد انغمس بشكل طبيعي في السياسة؟

كانت هذه عبارة الحقيقة البدهية، إذ إن غالبية شباب العاصمة مجبرون إلى حد ما ومرغمون في الأغلب على خوض الحرب الدائرة بين تمرد الشمال والحكومة، مع ذلك، بدا سؤالي قد أثار في ذهن ريتر مفصلا.

نظر إلي بإمعان، وشعرت بانزعاج لأنه استدرك وجودي من جديد، بعد تردد أخير، قرر الخوض في الموضوع، رأيته ينحني إلى الأمام ويلقي بنظرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، أخيرا دخل إلى ما يمكن أن يسمى صلب موضوعه:

- علي أولا أن أعترف لك بشيء شخصي جدا. باشر.

قمت بحركة بيدي تعني بأنني أتلقى سره بكل طيبة خاطر دون أن أكرهه مطلقا على تسليمه.

- هه، (استأنف وهو ينظر إلى كأسي وإلى أصابعي)، ولدت أثناء الحرب واعتقل والدي في العام 43 حين كان عمري سنتين.

كان يتحدث دون انفعال كمن يكتب محضرا شفويا.

- عرف سلسلة سجون في فرنسا ثم في النهاية نقل إلى ألمانيا إلى معتقل باكنڤالد، بقي فيه قرابة السنتين.

كانت المصابيح الخافتة التي تضيء الصالة تحيط بها فراشات الأرفة، تضفي على الوجوه وميضا فوسفوريا مخضرّا يزيد من شحوبها.

- لماذا اعتقل؟

ندمت فورا على سؤالي، خشية أن يرى فيه ريتر طريقة فظة للسؤال فيما إذا كان يهوديا.

- كان جزءا من شبكة مقاومة، (أجاب وفهمت من لهجته الطبيعية أنه لم يتضايق من عدم تحفظي)، أحدهم تكلم تحت التعذيب ووشى به، ولكن لا أهمية لهذا الأمر كثيرا، المهم ليس هذا.

- أين المهم إذا؟ لا أحب الأسرار حين لا تفصح عن ذكريات سعيدة، أنا الذي أحتمل الحرارة إلى حد ما، كنت منزعجا وقميصي مبلل كليا في ظهري.

- المهم أنه قد عاد، عاش أيضا عشرة أعوام، لكن شيئا ما كان قد تحطم في داخله، ذات مساء من تشرين الأول، شنق نفسه في الغرفة التي كان يستخدمها كمكتب.

مرّ أمامنا جمع من رجال الأعمال الإنجليز مسرّحي الشعور ومعطرين من أجل العشاء، وشغلونا بصخبهم المرح.

- توجب علي أن أعمل فورا تقريبا كي أساعد أمي، في الخامسة عشرة من عمري، دخلت كممثل تجاري في مشروع

للدهانات، ثم اشـــترته شـــركة كبيرة للمنتجات الكيماوية، بقيت فيه وتســـلقت المراتب، في هذا النوع من مكاتب العمل، يكفي أن تستمر كي تصعد وحدك.

قــام بيده بحركــة كمن يقلــب صفحات كتــاب كبير، كانت بلا شك إشارة إلى أنه يريد القفز فوق قصص كثيرة.

- ماتــت أمي منذ ثماني ســنوات، كنت قــد طلقت قبل ذلك بوقت قليل للمرة الثانية، منذ بضعة أشــهر، وصلت رســميا إلى القمــة، عينني مجلس الإدارة رئيســا، باختصار، كنت على رأس أول مجموعــة بتروكيميائية أوروبية. دخل أولادي الجامعات، كل ذلك، وبشكل طبيعي جدا، كان يحضّرني لأزمة منتصف..

ضحك، فاستغللت هذا للقيام بالمثل، مثل مشاهد يتنحنح بين مقطوعتين موسيقيتين.

- حدث ذلك في شقة والديّ، كنت أقوم بإخلائها كي أعرضها للبيع، فجــأة، في قعر خزانة الحائط، عثــرت على كل أغراض والدي التي أحضرها من المعسكر.

- هل يمكن حقا إحضار أشياء من المعتقل؟

- أشياء كثيرة، تخيّل، وأول الأشياء مراسلاته.

- تقصد أنه كان يتلقى رسائل؟ في باكنفالد!

- آه، لــم تكن تعــرف هذا أيضا؟ علمت أنــا بذلك منذ ذلك الحين واكتشفت بأنه، تحت بعض الشروط، كان بإمكان المعتقلين أن يكتبوا ويتلقوا الرسائل. بالتأكيد، كان كل شيء خاضعا لأنظمة صارمة، كان النازيون قد طبعوا استمارات خاصة، تجب الكتابة بقلم رصــاص وباللغة الألمانية، ويجب أن تكون الرســالة عادية تمامــا: «أنا على ما يرام، صحتي جيدة، إلخ..»، ولكن في معظم

الرســائل، تجد الخط يتشوه بعد ســطرين ويصبح غير مقروء، ما يعني: «أنا منهك»، وهذا – صدقني – أكثر ما يؤثر في النفس. بعد ذلك، تزلق الرســالة داخل مظروف ممهور بصورة هتلر، مع ختم مكتمل الدائرة، شبيه تماما بختم أي مكتب بريد في العالم، عدا أنه ســجل عليه ذاك المصدر الفريد: معسكر اعتقال ڤيمار باكنڤالــد.. وبالرد، كانت رســائل أمي تصلــه –البعض منها في النهايــة – احتفظ بها داخل جيبه طوال شــهور الرعب هذه، نام متعرقــا، مرتجفا من البرد وهــو يضمها إلى صدره، حتى غدت رقاقات متكززة، متكسرة، مبقعة، لكنه أحضرها معه.

كان قــد حل الليل كليا، قمر لا يُــرى من حيث كنا، يُبرز خط الأفق الرمادي الرفيع، وأشــرعة فضية كشــظيّات قطعها هذا النصل الرقيق، تتناثر في الأسفل، كان الصيادون خارجين لإلقاء صناديقهم الشبكية.

– عثرت أيضا علــى الكثير من الأشــياء الصغيرة؛ بطاقات النــداء، والطبابة والغداء، احتفظ والــدي بهذه الكنوز الصغيرة البائسة، مخبأة داخل لباسه الموحد المخطط، لا شك أن البنطال قد آل إلى أسمال، لكنني عثرت على السترة، نتنة، ملطخة بالبقع، وقد خيــط على صدرهــا المثلث الأحمر الخاص بالسياســيين وشريطة تحمل الرقم الذي وشموه على معصمه.

– ألم يُرك كل هذا من قبل؟

– أبدا، ولم أفكر به مرة واحدة خلال ســنوات الانشغال تلك بتحصيل الرفاهيــة والأملاك المادية، مضت حياتي على هامش الماضــي، أتفهم؟ شــرعت في ذلك الحين أقرأ كتبا عن مآســي القرن العشــرين، وبدأت أيضا بتصور السياســة كشيء يختلف

عن كونه رياضة سـخيفة تتجابـه فيها فرق متماثلة تقريبا حول صناديق الاقتراع بين وقت وآخر، يمكنك أن تحكم بأن الأوان قد فات، ولكن بعد كل ذلك، البعض لا يتوصل إلى إدراك هذا أبدا، على كل حال، اكتشفت وأنا في الخمسين أن التاريخ مأساة، وكان من واجبي أن ألتزم به.

- بأية وسيلة؟

- كانت تلك هي المسـألة كلها، صـاح وهو ينظر إليّ مواجهة هذه المرة، ألا أنسـى، هذا فعـلا أمر جيد، لكن احتفالات إحياء الذكرى، المتاحف والذكرى، لم ترضني على الإطلاق، لأنه بنظري، لا شيء انتهى، جرائم الأمس لم تجعلنا معفوّين من جرائم اليوم، الذكرى لا قيمة لها إن لم تضئ الحاضر والمستقبل.

- ولهذا اخترت العمل الإنسـاني؟ قلت بحماس، سعيدا جدا بالوصول إلى نهاية الحديث.

عبس ريتر في الحال:

- آه! صدرت عنه وهو يطأطئ رأسه، العمل الإنساني، أنت تدرك.. لسـت واثقا من أن هذه هـي الكلمة بالتحديد، حين يحتفظ المرء بذكرى المعسـكرات، يحكـم على كل ذلك بريبة، هـل كان إحضار الأغطية إلى «أوشـويتز» هو الحل؟ ما كنت أحاول القيام به هو اجتثاث الشـر من أساسه، تخليص هؤلاء المسـحوقين من الديكتاتوريات.. برنامـج طموح أمنحك إياه، لكن المشـكلة تكمن في وسائل تحقيقه، وأعترف لك بأنني لم أجد شيئا مرضيا، اخترت في النهاية الأمم المتحدة، لأنه هُيّئ لي بأن هـذه المنظمة تمثل المثال الأعلـى القريب مما أرغب به. فـي الأصل، الأمم المتحدة هـي إرادة اعتراض على قوة،

وبالتحديـــد بربرية، لكن عندما أرى بماذا وظفت هنا، بالقرب من الضحايا.. أنا أوافقك الرأي، هذا يختزل تقريبا ما ندعوه عملا إنســـانيا. بئس الأمر، الأفعال أقل أهمية من أســـبابها، أليس كذلك؟

توقـــف عن الكلام لحظـــة محرجة، وهذه المـــرة، كنت أفهمه جيدا؛ أنـــا أيضا لم أكـــن مرتاحا كثيرا بتبرير مـــا أفعله طوال النهار، عندما اخترت السلك الدبلوماسي، كان لدي أفكار كبيرة في رأسي..

– اعذرنـــي على هذا الاعتـــراف الطويل قليلا، إنما كان علي أن أشرح لك كل هذا للوصول إلى قصة اليوم، ها هي؛ أحسست بالحاجة إلى الاحتفـــاظ بذخيرة من معتقل أبي، اخترت أكثرها فظاعـــة من بين الكل، الأكثر تأثيرا في عيني؛ ســـترته المخططة كســـجين محكوم بالأعمال الشـــاقة، أحملها معي إلى كل مكان، تمثل بالنسبة لي الرعب الأقصى.

– أفهمك. قلتها وأنا أقصد العكس في نهاية الأمر.

– إنه فعل شـــعائري، نوع من التطير أعرف مقدار ســـخفه، لكنني أقول لنفسي طالما الوحش سجين هنا فهو لا حول ولا قوة لـــه، هناك بالتأكيد عذابات في هذا العالم، لكنّ أيا منها لم يبلغ القمة بعد، تصنيع الرعب هذا الذي بلغه الرايخ الثالث، ما يزال الخطر موجودا، لم يتم القضاء عليه وربما يكون ذلك مستحيلا، أقصى ما نستطيعه هو وضعه تحت المراقبة.

– كان بوسعك وضعها داخل صندوق ولا تنشغل بها.

– لا، أحتاج كي أشـــعر بها إلى جانبي، تحت حراســـتي، في علبتها.

- علبة باندور[3]، (أضفت قائلا) لا أريد أن أضيّع فرصة للإسفاف.

ابتسم متسامحا وأنا - صدقا - ممتن له، ثم وقف فجأة وسألني متخذا لهجة قوية وواثقة:

- ماذا تفعل وقت العشاء؟

- لا شيء خاصا..

ثلاث أو أربع مرات أجرينا أحاديث في المطعم نفسه، مكان مزدحم جدا، تأتي إليه راقصات ليبهجن السكارى، التردد الذي أبديته كان عائدا لذكر ذلك المكان المبتذل والذي، هذا المساء، لا يبدو ملائما جدا لجدية الحديث.

- لنذهب إلى المطعم الصيني المقابل. قال ريتر.

بددت هذه الفكرة البسيطة تحفظي، وافقت بسرور، من الواضح أننا لم نبلغ العمق الحقيقي للقصة التي كان يريد أن يحكيها لي، وكنت مشغول البال جدا بدور المدعو راهوال الذي يمكن أن يكون له فيها.

أمام فندق «غول فيس»، يحاذي البحر ميدان طويل، متراس حجري يشرف على الشاطئ؛ حين ينحسر البحر، يبدو الرمل كله شائكا بأغصان أشجار زرعت لتكسر الموج، اسودت من الملح وغطتها عناقيد من الأصداف، عند حلول المساء ونهايات الأسبوع، يجتمع سكان المدينة هنا لإطلاق الطائرات الورقية لتحملها نسمات البحر إلى ارتفاعات مدهشة، عند خروجنا من الفندق فوجئنا بازدحام من جهة البحر، كان باعة الفوشار والمثلجات قد ركزوا عرباتهم في

(3) إشارة إلى الأسطورة الإغريقية إذا تم فتح هذه العلبة تخرج كل الشرور والمصائب إلى العالم.

كل مكان تقريبا، ومجموعات من الشـــباب في معظمها تنتقل من واحدة إلى أخرى ضاحكة، كانت النسمة البحرية تختلط بروائـــح الأطعمـــة البحرية اللاذعة لدهون خبز الباتشـــولي المرقوق والشواء، كان الحشـــد صاخبا جدا لدرجة استغنينا معها عن أن نكون جزءا منه، شققنا طريقنا الواحد تلو الآخر حتـــى زاوية المتراس حيث تلتمع اللافتة البرتقالية والصفراء لـ «اللقلق الإمبراطوري».

بالكاد جلســـنا أمام زبادي البورسلين، ريتر وكما استشعرت، تابع حكايته التي على ما يبدو لم ينسها قط:

- البارحة صباحا، بدأ دون أدنى تمهيد، تلقيت زيارة مندوب سويســـري لـ CICR[4]، جاء يحدثني عن تقرير ســـيظهر في جنيف الشـــهر المقبل، وهو تحقيـــق مكتمل تماما عن الحرب في هذه البلاد، هل تعرف هذه الوثيقة؟

- لا، لدينا في السفارة شخص للمسائل الإنسانية..

- وافق السويســـري على ترك نسخة لي، قرأتها دفعة واحدة في مكتبي، فيها كل شيء، إنها دامغة تماما، وصف فيها بالتفصيل القمـــع الحكومي وظـــروف الســـجناء المتمردين في الســـجون، الجبايات غير القانونية ضد المدنيين، التعذيب.. ولكن نجد فيها أيضا جدولا كاملا بانتهاكات حقوق الإنسان التي ارتكبتها حرب العصابـــات، المتمـــردون مفتونون بالموت وبالتضحية، يحمســـون أولادهم ليجعلوا منهم مقاتلين عُميا لا يفكرون ســـوى بالتضحية بأنفسهم بارتكاب هجمات انتحارية.

- يبدو لي أن كل هذا قد سبق أن قيل..

(4) الهيئة الدولية للصليب الأحمر.

- ليس بهـــذا الوضوح، ليس بهذا الكم من التفاصيل المريعة، فـــي كل الأحوال، اضطرب كياني، منـــذ أن اخترت هذا الطريق الجديد، لم أشـــعر قط حتى الآن بأنني في مواجهة مأساة بهذا العمق باستثناء مأساة الحرب العالمية الثانية، شاهدت الكثير من الآلام، ولكن ولا واحدة، وأجهل السبب، لم تبدُ لي على قدر الآلام التي عاناها والدي.

وضعـــت أمامنا قطع رقائـــق الأرز الملفوفة الكاملة الدســـم، لكـــن الجوع الذي كان يتملكني جعلنـــي أزدردها دون انزعاج من رائحتها الزنخة. بالنســـبة لريتر، لم يكن يبدو واعيا حتى لوجود هذه الأغذية الدنيوية.

- بعـــد ظهر اليوم، (اســـتأنف)، لم أذهب إلـــى المكتب، كنت بحاجـــة لترتيب أفـــكاري بالبقاء هادئا في منزلـــي، كان راهوال هنـــاك، عادة يعمل وحيدا، وأتخيل أنه لا يقوم بالشـــيء الكثير، كان وجـــودي يزعجه، بدأ بعرض نشـــاط صاخب، كنت أســـمعه يصدم المكنســـة الكهربائية بالأبواب، نحو الساعة الرابعة، طلبت منه شـــايا، وراودتني فكرة أن يحضر اثنين، بينما يشـــربه معي سأستعيد هدوئي، ربما كان لدي رغبة بالحديث بشكل خاص.

أشـــرت للنادل بتغيير الأطباق، على الرغم من أن ريتر بالكاد لمس طبقه، لكن من الواضح أنه كان مندفعا وليس أمامي ســـوى أن أدعه يتابع حتى نهاية حديثه.

- رســـميا، ليس لراهوال علاقـــة بالمتمرديـــن بالتأكيد. في الواقع، كان له علاقات عديدة معهم، لذلك ســـألته فيما إذا كان يؤكد ما قرأته، إذا كان يعرف مثلا أنه يوجد في الشمال البعيد، في مناطق تســـيطر عليها العصابات المســـلحة، حدائق للأولاد

المنذورين لطائفة الموتى، المزينة بصور الشهداء المقاتلين، شباب في غالبيتهم، لطفاء، باسمين، وفي أغلب الأحيان يمزقون أنفسهم بتفجير أحزمة ناسفة وسط تجمعات للمدنيين، أكد وأوضح بناء على طلبي أنه في مدن الملاهي الغريبة هذه، الأراجيح على شكل رشاشات وهياكل الدبابات حولت إلى مزلقات. حدثته أيضا عن الفدائيين السود المكلفين بالقتل وبارتكاب أعمال بربرية، قال لي إن الأمر لا يتعلق بالبربرية إنما بالحرب، حرب عادلة زيادة على ذلك والتي تشرّع استخدام وسائل استثنائية.

لم يسبق لراهوال حتى ذلك الحين أن اتخذ جانب المتمردين بهذا الوضوح، لكنه بعد ظهر ذلك اليوم كان قد قرر استفزازي. تحدثنا عن السجناء وبرر بالحجج نفسها التعذيب والإعدامات التعسفية، حاولت استخدام الحجة القديمة المسماة المعاملة بالمثل، يجدر عدم معاملة الآخرين كما لا نريد أن يعاملونا، إلخ.. نظر إلي هازئا واتخذ بكل زيف هيئة الأبله الذي لا يفقه شيئا (لكنني كنت أرى عينيه تلتمعان)، قال لي:

- ولكن، لا تخف، يسخر المتمردون من الكثير مما يفعل بهم حين يصبحوا سجناء، إذ إن لديهم برشاماتهم!

- أية برشامات؟ سألته.

- كبسولات السيانور[5] المتدلية من أعناقهم، الكل يحمل واحدة منها، معلقة بسلسلة صغيرة، إذا ما اعتقلوا، يقضمونها وينتهي الأمر؛ يموتون، هيه! هيه! لماذا إذا تريدهم أن يحرموا من القيام بما يريدون مع سجنائهم؟

نظرت إليه بحدة، وقلت له:

(5) ملح سام.

- بسجنائهم الأحياء، راهوال.

اكتفى بهز كتفيه بحركة من لا حول له تجاه الذين يرتكبون الحماقات.

لم يلمس ريتر طبقه الثاني أيضا، ووجدت أنه من الرحمة أن أقول بضع كلمات كي يتوقف ويأكل.

- إنه جريء، صديقك راهوال حين يجاهر هكذا لصالح المتمردين، للشرطة آذان في كل مكان في عاصمتنا الحميدة، قد يكلفه ذلك غاليا.

- هو عادة أكثر حذرا، لكنه يعلم جيدا أنني لن أشي به أبدا مهما كان رأيه، فضلا عن ذلك، فقد اندفع بجسارته إلى حد أبعد نوعا ما، عندما سألته إذا كان يوافق على أن يضع أحد أولاده في معسكرات التحضير للموت، نظر إلي بابتسامة ساخرة كمن يقول: «أنت بنفسك اعثر على الجواب»، كان لوقاحته موهبةٌ في إغاظتي أشد الغيظ، شتمته، وهنا، أعتقد أنه خاف، ليس من الشرطة، إنما من أن يفقد عمله حين رأى غضبي.

- لا أفهم لماذا تناقش شخصا متعصبا، هذا غير مجدٍ.

- أنت لا تفهم. صاح ريتر بحركة نفاد صبر جعلتني أطيّر كرية الرز، لم يكن ذلك موجها إليه بشكل خاص، بل كنت أتحدث هكذا من أجلي ومن أجلي فقط، كنت بحاجة لأن أصرخ بوجه أحد ما يثقل على قلبي، فضفضت له بكل شيء حينها.

ضحك هازئا، لكنها ضحكة صغيرة حزينة، مثل صرخة مريض يطلق صرخة: «لقد شفيت»، في لحظة تسليمه الروح.

- أخرجت كل شيء، نعم.. حدثته عن شرك الهمجية، سألته إذا كان يرى الخطر بتبني الوسائل الإجرامية للدولة التي يريدون

النضال ضدها وبمنافســتها بالعنف الأعمى، ما الذي سيحصل في الغد إذا مـــا أتى أصدقاؤه المتمردون إلى الســلطة؟ الجهاز الشــمولي الذي ضبطوه أثناء الحرب سوف يتخذ أبعادا وحشية في وقت الســلم، وســيغدون أســوأ من هؤلاء الذين يريدون أن يحلوا محلهم.

توقــف ريتر للحظة وســكب قليــلا من البيــرة الصينية في حنجرته المشتعلة من الغضب.

اســتمر الحديــث قرابة الســاعة، إذا أمكــن أن ندعو ذلك حديثــا، لأنه لم يكن هناك من يتكلم ســواي، المســكين راهوال، لــدى رؤيتي بأي حــال كنت، أصغى إلي ببســاطة، بهيئة مبجلة علــى نحو غامض، وقار يمتزج فيــه الإنهاك بنفاد الصبر. لكن، لــم أكن أبالي، كنت قد خرجت عن طــوري، أكملت دورتي حول عالم الاستتكار آخذا أمثلة من كل مكان، من الخمير الحمر حتى الطالبان، من الثورة الإيرانية إلــى الماويين الصينيين، من أكراد حزب العمال الكردستاني إلى جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، لم أكن متأكدا مــن أن هذا يعنيه مهما يكن، لكنني كنت معاندا، أردت أن أظهر له أنه يجدر الحكم على نيات هؤلاء الذين يريدون السلطة قبل أن يستولوا عليها، في النهاية، بما أنه كان لا بد من الوصول إلى أوروبا، ألفيت نفســي أحدثه عن الرايخ الثالث، عن المعسكرات، عن برنامج الإبادة الذي كان واضحا في تصريحات هتلر قبل الحرب، وفجأة أدركت على نحو صاعق حماقتي، وحتى لا أفقد رباطة جأشي تماما، غادرت الغرفة صافقا الباب..

عند تلك اللحظة، نهض دبلوماســي كنــدي من معارفي عن طاولتــه مع بعض الأصدقــاء وحيّانا بمــودة، كان ذلك التوقف

مؤاتيا كي أطلب الحساب، استغل ريتر الموقف كي يزدرد بضع لقيمات من لحم العجل بالصلصة الحارة، كان جليا أنه بحاجة ليستعيد قواه.

- لم أتوقف عن التفكير في ذلك، بعد أن خرجت من منزلي، وتذكرت فجأة أنني في العام الماضي، صادفت راهوال في الشارع مع ولد في السابعة باهر الجمال، كانت بشرته داكنة جدا كالبرونز المصقول، وسط هذا السواد تلتمع عينان باللون الأخضر الزمردي برموشهما الناعمة الطويلة، قدمه لي راهوال على أنه ابنه، وفيما بعد، كنت أسأله على الدوام عن أخباره، كان يجيب على نحو لا يتغير بأن الولد بصحة جيدة. وفجأة، قبل ستة أشهر، أعلن لي برصانة ولكن بلامبالاة غريبة أنه قد مات. أنا على يقين الآن من أنه جعل منه شهيدا للقضية، فكرت مجددا بعينيه الخضراوين ببراءتهما المشوبة، أتخيلهما الآن مليئتين بحقد فظيع، في مكان ما في الشمال، إلا إذا كانتا قد تمزقتا بقنبلة..

استغللت سوداوية ريتر كي أدفع الفاتورة المتواضعة وأخذه خارجا، عندما أصبحنا في الشارع، خطونا بضع خطوات هادئة باتجاه الحي الرئاسي حيث يسكن كلانا، كان الباعة الصغار قد جهزوا بضاعتهم، تسري الآن في الشوارع الرمادية طراوة لطيفة، كانت تتناثر فوق الإسفلت المغبر علب البطاطا المقلية الفارغة والعصي الخشبية الصغيرة.

- لا شك أن راهوال كان خائفا على وظيفته بعد غضبي، (قال ريتر وهو ينفث عميقا نفخة من التبغ)، حين تغيبت نحو الساعة الرابعة من أجل موعد كان لدي في المدينة، ضاعف همته كي

يفــرك البيت، كان يحاول بالتأكيد أن ينال رضاي، لســوء الحظ، مســكني صغير وأعيش عازبا، كما تعلم، ذلك لا يعطي الكثير من الفرص لموظف بدوام كامل كي يبدي الهمة، إذ إن كل شيء نظيف ومرتب. بحث راهوال بيأس عن الوسيلة كي يضرب ضربته الكبرى ويكفر عن خطيئته، على الأقل، هكذا أظن جرى الأمر.

مرت قافلة من ثلاثة كلاب جرداء، وفي خلو الشــارع المضاء بالقمر، راودتنا تقريبا رغبة بإلقاء التحية عليهم.

- هكذا، بعد عودتي لاحقا، كان راهوال قد غادر، استحممت من جديد، الرابــع في ذاك اليوم، ولكن برطوبة هنا.. بعد ذلك، بحثــت عــن لباس نظيف كي آتــي وأتناول معك كأســا، فتحت خزانتي، كل بدلاتي منسقة هناك بنظافة، كالعادة، فوق علّاقات، أمســكت بالســترات واحدة واحدة من الكتف للعثور على بذلتي الصحراوية البيج.

توقفنا، ولا أعرف القول لماذا، دون شــك لأن ريتر قد جمد، على كل حال حين التفت إليه كان ممتقعا.

- في تلك اللحظة رأيتها، كانت موجودة بشــكل لا عيب فيه، بين بذلتي الكتانية والأخرى الســموكينغ التي أحتفظ بها داخل كيس، هــي التي لم أرها قط إلا مجعدة، مرمية ملفوفة وخرقة، محفوظة دون مراعاة وبكراهية تقريبا، كان راهوال قد أخرجها مــن محفظتها، غســلها، كواها، وها هي معلقــة على علّاقتها، وكأنها منتفخة بكتفين بشــريين، بخطوطهــا الزرقاء والرمادية، لا بل رتق المثلث الأحمر ونمرة المعســكر، كانت ســترة باكتمالها جاهزة، بالنســبة إليّ، بالنســبة إلى العالم، كان الرعب قد خرج من علبته.

قطار الحياة

حدثت القصة في ليلة عادية، في الخريف، منذ سبعة أعوام، لكنني لم أنسها، في كل عام وفي الموسم نفسه، تعود إلى ذاكرتي بأدق تفاصيلها، تحمل لي سعادة حزينة لا بل مؤلمة إلى حد أسفت معه لوقت طويل عدم استطاعتي مشاركتها مع أحد، ربما بكتابتها، سأتوصل إلى ذلك..

في بعد الظهيرة ذاك، كنت أجلس في قطار، في محطة باريس الشرقية، وأنتظر أن يرحل، كان قطارا قديما قرميدي اللون، النوع الذي أؤثره، فهو يذكرني بطفولتي وبأنني لست على عجلة من أمري، كنت عائدا إلى بيتي في «آردين»، تركت سيارتي في موقف للسيارات في «شون»، لم يكن هناك مخاطرة بأن تسرق بالنظر إلى هيئتها وعمرها، من «شون» يبقى لي ساعة على الطريق، أسكن وسط الريف، في بيت من الحجر الأصفر، منعزل عند تخوم الأراضي الزراعية والغابة، هذا خياري فأنا طفل المدينة في الغالب، لكن يلزمني متسع من المكان كي أمارس مهنتي؛ التحقيق المصور المستقل. خلال نصف السنة أجوب العالم، أنفتح على كل اللقاءات، وفي الخريف، ألتجئ إلى العزلة وأعمل، لو كنت سجين غرفتين في المدينة لأصابني الجنون، بالسعر ذاته، لدي مكان أجول فيه، وحين لا أكتفي بذلك، أخرج

إلى الحقول، حول منزلي، أسكنت الحروب الأرض بالأشباح، وهي رفيقتي.

في ذلك اليوم، كنت عائدا من باريس حيث كنت أفاوض على عقد عمل جديد أكثر فأكثر شحا مع الوكالة التي تبيع صوري، رغم ذلك، هو عقد وسيسمح لي بالاستمرار في العيش من مهنة أعشقها. استغللت الزيارة كي أقوم بفحص طبي شامل، بمناسبة اقترابي من الخمسين، كل شيء كان طبيعيا؛ قلب ممتاز، كولسترول منخفض، لا إيدز ولا التهاب الكبد C، أوففففف!

البارحة مساء للاحتفال بذلك، دعوت عشرة من أصدقائي للعشاء في أحد المطاعم، كانت السهرة ممتعة ولم أنم كثيرا، حسبت أن أعوض في القطار، لكن القصة لم تبشر بالخير، على مسافة عدة مقاعد مني، جلست زمرة من الفلبينيات يضحكن ويتحدثن بصوت مرتفع، كان القطار يتابع حتى لوكسمبورغ وهن يعملن هناك دون شك، رحت أتخيلهن خادمات في البيوت مثل أخريات كثر، وليس لديهن المال ليقدمن لأنفسهن مكانا في القطار السريع الذي يطير باتجاه أوروبا الشمالية؛ لكن لم يكن باديا عليهن التعاسة بسبب ذلك، كنّ متحمسات كليا بعد القيام بالتبضع في باريس، سراويل جينز ضيقة جديدة تماما، أحذية NIKE آخر صرعة، أوشحة كشمير موشّاة، كن ينبشن داخل رزماتهن ويعرضن لقياهن وهن يطلقن صيحات الفرح.

أعطي هذه التفاصيل الدقيقة كي أجعلكم تشعرون بشكل أفضل بالجو الذي كانت تغرق فيه هذه العربة. رشّت الفتيات أنفسهن بالعطور مرة أخيرة قبل معاودة ارتداء ثوب الخادمات وتحولهن إلى رزينات لدى أسيادهن، كنّ سعيدات ومتعبات،

أراهِن أنهن قضين الساعات الأخيرة في السرير مع الرفيق الذي لن يرينه قبل أسابيع طويلة، بينما كنت أسمعهن يروين لبعضهن بصوت منخفض قصصا بلغة لم أكن أفهمها، كنت غارقا بحلم شهواني جعل مزاجي جذلا.

دوّى صوت المراقب فجأة، في قطارات «الكوراي»، احتفظ المراقبون بلهجة الطبقة الكادحة الفريدة، والتي أعطت لوقت طويل سحر الشركة الوطنية للخطوط الحديدية (قبل أن تفرض شركة القطارات الفائقة السرعة على موظفيها اللهجة اللطيفة المتكلفة لشركات الطيران)، تلا الرجل بحزن مسبحة محطات درب الآلام الطويل الآخذين بعبوره، اختتم بإعلانه إقفال الأبواب، في الصمت الذي تبع ذلك، سمعنا في الخارج جلبة كوكبة فرسان، وصيحات امرأة، ثم في نهاية العربة، صوت مكتوم للبوابة وللحقيبة، في اللحظة ذاتها تقريبا، دوت على الرصيف صافرة وارتج القطار.

فتح الباب السحّاب وصعدت إلى الممشى فتاة أفريقية شابة تلهث بشدة وهي تجر وراءها حقيبة بلاستيكية، توقفت عند مستواي، تأكدت من تذكرتها، وأشارت لي بأنها ستشغل المكان الشاغر إلى جانبي، وقفت أفسح لها مجالا كي تمر، واقترحت بكياسة أن أرفع حقيبتها إلى الرف، كان علي أن أرتاب، فقد سافرت دائما إلى أفريقيا، قد تكون بوزن صاحبتها، وبدوت في الواقع مضحكا بمحاولاتي الثلاث لرفعها، حتى إن إحدى الفلبينيات الأطول من رفيقاتها حاولت أيضا القدوم لنجدتي.

انتظرت واقفا إلى أن تجلس جارتي، احتفظت بمعطفها الأسود، وحشرت بين ساقيها حقيبة سفر قماشية تحملها

بالورب على صدرها، وأفهمتني ورأســها مسند إلى المقعد، أنها لن تتحرك بعد الآن، جلست وسمعتها تطلق تنهيدة طويلة، لم تكن مع ذلك بسبب المنظر المحزن لأبراج الكهرباء الصدئة والجدران المجذومة التي تتعاقب من وراء النافذة، هي زفرة ارتياح لشخص واثق من أنه لن يصل إلى أية نتيجة، فتشت في حقيبتها، أخرجت منهــا قطعة قماش بيضــاء كبيرة لتســتخدمها كمنديل، وبدأت تجفف جبينهــا وعنقها. تركتها تفعل ذلك بــكل اللباقة الممكنة، وغرقت في الصحيفة المجانية التي سلموني إياها عند خروجي من المترو، أمقت إزعاج النســاء في الأماكن العامة، كمبدأ، أمتنع عــن مبادرة توجيــه الكلام إلى امرأة لا أعرفهــا، رغم فضولي، طبقت هذه القاعدة على جارتي الجديدة.

في أثناء ذلك، وبينما كنت أقرأ مقالا دون أهمية عن الانتخابات المحلية أو شــيئا من هذا القبيل، لم أتمكن من ردع نفســي عن مراقبتهــا خفية، كنــت وأنا ألقي نظرات خاطفــة نحو النافذة، ألتقــط بضع صور لها، كان لــدي الكثير من الحجج كي أختلس النظــر، فهي دون أن تتفوه بشــيء لم تكــن تتوقف عن الحركة، أخرجــت من حقيبتها زوج صنادل بلاســتيكي أخضر، من النوع السكانديناڤي المزيف بشكل مشبوه، انتعلته بدل حذائها الجلدي ذي الكعب العالي، وأصــدرت ضحكة ارتياح صغيرة، أتاحت لي إحدى النظرات أن أرى جمال ساقيها، لم تكن ملابسها لتبرزها، كانت تلبــس تحت معطفها المفتوح على اتســاعه قميصا أبيض وتنــورة ضيقة من القماش الأســود خالية من أية بهرجة، أثارت تلك التفاصيل عندي آلية الاحتمالات التي تنطلق بســرعة كبيرة كما سبق أن أدركتم، تركت نفسي أنساق لسلسلة من التصورات،

«كــي تلبس على هذا النحو الكئيب، تشــكل هذه الفتاة بالتأكيد جــزءا من جماعة دينية، فضلا عن ذلك، هذا شــائع جدا اليوم فــي أفريقيا، أتباع أحد العنصرة(6) وغيرهم لوثركينغ، يشــكلون مصيبة». رحت أتخيلها تنشد المزامير وهي تصفق بيديها، وحين أخرجــت من حقيبتها كتابا صغيرا، كنت لأراهن على أي شــيء بأنه إنجيل.

كان يتوجب علي التحقق من الأمر، خالفت هذه المرة شــيَمي، فاجأت نظرتي بينما كنت أرمق كتابها بجســارة، وجدت نفســي مثيرا للشــفقة مرتين؛ للإمســاك بي بالجرم المشــهود، ولأنني أخطــأت، لم تكن تمســك إنجيــلا إنما مذكرة كبيــرة، لاحظت مناورتي وابتسمت لي للحظة قصيرة، عدت للقراءة، أصبح الأمر الآن لعبــة فيمــا بيننا، كل منا يعرف بمــاذا يكتفي، أدركت أنني تركت لها المبادرة وهي تأخذ وقتها، اســتمرت بتصفح مذكرتها وهــي تمصّ قلم حبر، في إحدى اللحظــات، تلوّت في مقعدها، ظننت بأنها تريد خلع معطفها وتبعدني كي أفسح لها مكانا.

- شــكرا، قالت وهي تهز رأســها، سأبقى فيه قليلا، رائحتي عرق قوية.

الإشارة المنتظرة تم إعطاؤها، ولكن بشكل يدعو للدهشة على الأكثر، فالحديث إلى شــخص عن رائحتــكَ الخاصة هو بمثابة تجاوز مراحل عــدة بقفزة واحدة والوقوف فــوق الحيز المزعج للخصوصية. أخفيت ارتباكي وأنا أغمغم بإسفاف:

- لا، لا! لا تنبعــث منــك رائحة شــيء، فــي النهاية، أقصد لا شيء سيئ.

(6) تيار ديني نصراني إنجيلي نشأ في الولايات المتحدة الأميركية عام 1906.

استدارت نحوي وكانت عيناها تضحكان، كانت طبيعية كليا، وفرحت لرؤيتي طبيعيا إلى حد ما، أتاح لي هذا الحدث العارض الفرصة كي أتفحص وجهها، في البداية لم ألحظ سوى جدائلها الصغيرة التي تغطي رأسها، لم تكن جميلة ولا متقنة ومرنة، كانت بالأحرى كعيكات تتسلق جمجمتها، صفتها الرئيسية إبراز ملامحها بشكل كامل.

كان وجهها أملس تماما مثل حجر مصقول، وجنتاها بارزتان، وحرف أنفها مرسوم بشكل جميل وشفتاها الممتلئتان تشكلان زوايا واضحة مع ذقنها وخديها، كانت هذه الدقة الهندسية الشديدة شبيهة بقناع من أقنعة شعب مالي أكثر من شبهها بوجه امرأة شابة، لكنها كانت تحرك كل ذلك بتعبير ماكر، ترمش برموشها دون توقف، تتقافز نظرتها من مكان إلى آخر، وحين تثبتها تكون مفعمة بالمرح، تمرر لسانها فوق شفتيها فيجعلهما القليل من لعابها تلتمعان.

- هذا لأنني ركضت دون توقف من عملي حتى المحطة، حتى إنني لم أجد الوقت لخلع زيّي.

وأنا بكل غباء، الزيّ يعني الجيش أو الشرطة:

- زيّك..؟

جعلتها هيئتي المندهشة تضحك.

- نعم، أنا نادلة..

نادلة، بالتأكيد، التنورة السوداء، القميص الأبيض، الحذاء الموكاسان.. لقد ذهبت بعيدا جدا بقصصي الدينية.

- و.. هل تعملين بعيدا؟

- في دينفر روشيرو، هل تعرف المقهى الواقع على زاوية جادة الجنرال لوكليرك؟

كذبت كي أبدو شخصا مهما، لم يخطر ببالي قط بأنني سأسعدها بهذا القدر.

- آه، أنا سعيدة لأنك ذهبت إلى هناك من قبل، هل كنت على الغداء؟ صاحب المطعم يحضر تارت الليمون المزين بحلوى الميرنغ، إمممم! إنه لطيف جدا، هو وزوجته، هما من أوفيرنيّ، بالتأكيد، لكنهما كريمان جدا مع ذلك..

كان ليظن بأنها عرفت لتوها بأننا أبناء عم، كانت نبرتها خفيفة، يصعب تحديدها، مزيج من لهجة أفريقية وباريسية، كانت تتابع حديثها إلي عن مطعمها عندما صاح هاتفها داخل حقيبتها، أخرجت منها جهازا مستديرا، صدفيا، علقت عليه دمية شقراء صغيرة مريعة، قرأت الرسالة التي ظهرت فصارت ملامحها خطيرة.

- اعذرني، علي أن أعيد الاتصال.

شكلت رقما، انتظرت، ضربت بأصابعها فوق الهاتف المحمول.

- هكذا دائما، نسيت أن أشحنه وفي الوقت الذي أحتاج إليه..

- هل تريدين هاتفي؟

- هذا لطف كثير! لن آخذه طويلا، إذا كان هذا لا يزعجك حقا؟

لا أدري لماذا، ولكن خالجني شعور بأن كل هذه المسرحية للوصول إلى هنا، أخرجت من جيبي جهازي النوكيا العتيق المعاصر تقريبا لظهور الجهاز الخلوي، كانت شفوقة ولم تسخر مني.

- هل تعرف في أية ساعة نصل إلى لوكسمبورغ؟ سألتني وهي تنسخ فوق الأزرار رقما سحبته من مفكرتها.

- أنا أنزل قبل ذلك، ولكن دعيني أحسب، سوف نكون في

شـــون الســـاعة الحادية عشرة وعشـــر دقائق، سأضيف نصف ساعة كاملة، احسبي منتصف الليل تقريبا.

- شكرا.

تركت المكالمة ترن، ولكن لا أحد كان يرد على ما يبدو.

- هل تسمح لي بإرسال رسالة قصيرة؟ يرن في الفراغ.

- تفضلي.

عندما انتهت بذلت جهدي كي نعود للحديث.

- هل تذهبين إلى لوكسمبورغ؟

كان ذلــك كل ما وجدته، ولم يبدُ أنه ســيأخذنا بعيدا، ولكن لدهشتي الكبيرة، بدا السؤال ملهما.

- لا، هنـــاك أغيّر، فيما بعد آخذ قطارين آخرين، في الواقع، أنا ذاهبة إلـــى ألمانيا، إلى كييل بالتحديـــد، أمي وأختي تقيمان هناك، هل تعرف؟ آه عذرا، هل تعرفون؟

- يمكننا رفع الكلفة.

- حسنا، هذا أسهل، لا أتوصل كثيرا لقول أنتم، حتى الزبائن في المقهى، أحدثهم بصيغة المفرد.

ابتسمت بتهذيب.

- اسمي واسّا، قالت، وأنت؟

- بول.

هزت رأسها برصانة وكأنها تثني على خيار والديّ.

- إذا بول، أنت لا تعرف كييل؟ (استأنفت)، الحقيقة، لم يفتك شـــيئا، أنا نشـــأت في تلك المدينة، لكن ما إن تمكنت من الفرار حتى رحلت إلى فرنسا، منذ سبع سنوات وأنا أعيش في باريس، في البداية كان الأمر قاسيا ولكن تحسن الحال.

ختمت وهي تخلع معطفها هذه المرة، لم أستطع منع نفسي من تقصي رائحتها، كانت مزيجا من عطر رخيص بخلاصة الورد ومسحوق غسيل نفاذ بروائح الخزامى، ربما في السريرة يمتزج معهما طرف رائحة ممسّكة أكثر لا شك أنها صادرة عن جلدها، كيف لي أن أُفهمها بأن هذه اللمسة الإنسانية، رغم كل شيء، هي التي تجعل المجمل طيبا؟

– هل ولدت في ألمانيا؟

– لا، أتى أهلي من مالي حين كان عمري ثمانية، والدي هجين ووالدتي مزيج من الهواسا والموسي، هي من فولتا العليا، أعرف تماما أنها بوركينا، لكن نحن لم نعتد على ذلك قط، ونقول دائما فولتا العليا.

أطلقت ضحكت فيها صيحة الفرحة التي غالبا ما سمعتها في الأسواق الأفريقية، حكيت لها بأنني أعرف جيدا تلك المنطقة، سألتني عن مهنتي، وأصغت بتهذيب وأنا أروي لها عن التحقيق المصور للحرب، الذي بدأت به، والأسباب التي من أجلها انتقلت شيئا فشيئا إلى المواضيع الأكثر حرية، صور عن الأسفار، عن الأعراق.. انطلق الحديث وكانت طبيعية جدا، لا شيء يعطلها، قادرة على الحديث عن كل شيء ومع كل الناس وبكثير من المزاج الطيب، مع ذلك شعرت بأن هناك شيئا ما يشغل بالها، كانت وهي تثرثر تتابع النبش داخل حقيبتها وتعبث بمذكرتها وتنظر إلى ساعتها، عندما رن هاتفي معلنا وصول رسالة، أدركت أنها كانت تنتظرها بفارغ الصبر.

– عفوا، (قالت)، طلبت أن يرسل لي رسالة..

مررت لها الهاتف بكل طيبة خاطر.

- هل هـي أمك القلقة؟
- ليست أمي، لا. قالت بتحفظ وهي تفتح الرسالة.
قرأت النص بصمت، دون أن تتغير ملامحها.
- خطيبي.
ضربت بأصابعها على الأزرار كي تمحو الرسالة وأعادت لي الجهاز.
- إنه ألماني، (أعلنت برزانة)، ألماني حقيقي من هامبورغ.
لم أعرف فيما إذا كانت نبرتها موجهة لإعطاء الأهمية لهذا الخبر أو أن هذا الإعلان يتسم بصفة مأساوية، مثل الكشف عن مرض خطير.
- هل أنتما معا منذ مدة طويلة؟ سألت بفضول صريح.
لم أتضايق من إقحام رجل في محادثتنا، الحق يقال، لم يكن لدي أية نية محددة تجاه هذه الفتاة، لم أكن أرغب بأكثر من صحبتها، أثناء هذه الرحلة اللانهائية، بما أنها تحدثت عن خطيبها فقد أوضح ذلك نوعا ما الموقف ورفع الغموض عما كنا نتبادله. مع ذلك، كان ثمة شيء يستمر بإقلاقها، كانت تجيبني بشرود، تنظر معظم الأحيان عبر النافذة إلى اللانهاية، غاصت من جديد داخل حقيبتها التي تحتوي على عدد غير معقول من الأغراض المختلفة، التقطت منها نوعا من الأنابيب، بلاستيكيا أبيض، وقبضت عليه بيدها، اعتذرت ونهضت نحو دورة المياه، عادت بعد لحظة طويلة بهيئة جدّية، قررت أن أتركها وشأنها وذهبت لإحضار المشروبات من عربة البار.
حصل المشهد المسرحي أثناء عودتي وأنا أحمل علبة كوكاكولا في كل يد؛ توقف القطار في الأرض العراء، لا شيء غير عادي،

ظاهريا، ستقولون لي، لكن سوف أجيبكم بأن الأحداث الكبرى غالبا ما تتخذ أقنعة خادعة.

لدى وصولي إلى مكاني، ألفيت جارتي في أسوأ حالاتها، كانت تخبط برجليها، تنظر عبر النافذة محاولة أن ترى أبعد ما يمكن نحو الأمام، كي تحزر ما الذي يمكن أن يوقف القطار.

- هل تعتقد بأنه سيعاود الانطلاق قريبا؟ صاحت بي عندما رأتني.

اكتفيت بهز كتفي، إن توقف قطار كوراي وسط الطريق يمكن أن يكون أي شيء باستثناء أن يكون حدثا استثنائيا.

- شغّل مكابحه فجأة، هل لاحظت؟ آمل ألا يكون صدم شيئا ما، ذلك يحصل غالبا على ما يبدو، أن تقوم القطارات بقطع السيارات إلى قطعتين لدى مرورها على تقاطعها.

- ليس إلى هذه الدرجة، مع ذلك! أجبت بكل هدوء، لا تقلقي، سيعاود الرحيل.

لم تكن تنبؤاتي تطمئنها، أعادت إخراج ما ظننته منديلا، وهو في الواقع منديل مائدة التقطته دون شك من مطعمها، لفّته على شكل كبيبة في قبضتها وراحت تمسح فمها بعصبية، مثل غالبية الرجال، أميل بشكل طبيعي أن أنسب للنساء مقدرة التنبؤ، بالأخص في مجال الكوارث، وسمعة الأفريقيات في هذا المجال لا عيب فيها، تملكني رغما عني خوف غامض ودون سبب محدد، يستطيع القطار أن يتوقف قدر ما يريد، ذلك لن يغير الشيء الكثير بالنسبة إلى وضعي، لا شيء ولا أحد كان بانتظاري، باستثناء سيارتي، قُدِّر لي ألا يكون عندي أولاد، والآن بعد أن تجاوزت الأربعين بكثير، لم أعد آسف على ذلك، تستقبلني بعض

الصديقـــات هنا وهناك، ولكـــن ولا واحدة كانت تخاطر بالمجيء لاصطياد الذئب في حجره.

– علـــي أن أغيّر قطار في لوكســـمبورغ، (قالـــت بلهجة تثير الشـــفقة)، سيكون الأمر مأساويا إذا ما فاتني، القطار التالي لن يكون قبل بعد ظهر الغد.

فكرت فجأة بأننا في الحادي عشر من تشرين الثاني.

– تقطعين الجســـر، أليس كذلك؟ لهـــذا، بالتأكيد أربعة أيام قصيرة جدا للذهاب بعيدا هكذا.

كنـــت أدرك أنها لا تريد قضـــاء اثنين منها في القطار. هزّت رأسها.

– أنا معتادة على ذلك، أذهب إلى هناك مرة كل شـــهر، سبق لي أن قمت بذلك في أسبوع واحد، لا، المشكلة..

في اللحظة التي كانت تحدثني عما يشـــغل بالها، حدقت في وجهي وشـــيء ما جعلها تتردد، في تلـــك اللحظة، توجه المراقب إلى المسافرين كرعد يسلم رسالته إلى الأرض من الغيوم، زأر في مكبرات الصوت معلنا أن العطل جســـيم، ويستحيل معرفة متى سنعاود الرحيل، قوبل كشف السر هذا بانفجار صرخات، راحت الفلبينيات يزعقن فرحات، فكـــرة الوصول متأخرات أفرحتهن، كل الحالات الطارئة تعجبهن ولا يبدون في الظاهر مستعجلات للقاء أسيادهن، أطلق بعض الفرنسيين صيحات إستنكار بلهجة مطلبية، لكن الأمل برؤية شركة الخطوط الحديدية الوطنية ترد قيمة البطاقة في حال التأخير الطويل خففت من هذا الســـخط بأمـــل مخفي، أما من صـــاح بفداحة لدرجة أســـكتت الآخرين للحظة فهي جارتي واسّا.

وقفت وأطلقت زئيرا حقيقيا، ثم هوت في مقعدها وشــرعت تنتحب.

قليــل القول بأنني بدوت كالأحمق، مــاذا أقول لغريبة تنتابها نوبة عصبية لأن قطارها قد تعطل؟ في الحقيقة، لم يطلب أحد مني شيئا، لكنها أفلحت، حتى دون أن توجه لي الكلام، بإقناعي أنني كنت مسؤولا عن مصيرها.

بعد قليل، عبر المراقب بلحمه ودمه هذه المرة بخطا ســريعة يتبعه رهط من المســافرين الهائجين، لــم يخطر على بالي قط أن يكــون هناك هذا الكــم من الناس المســتعجلين داخل قطار كوراي، لدى رؤيتهم، اندفعت واسّــا بملاحقته هي أيضا، عادت بعد حوالي عشــر دقائق، أكثــر انهزاما من قبل، في الوقت ذاته تقريبا، حدد إعلان جديــد ما توجب عليها معرفته من قبل: لن ينطلق القطار مجددا قبل ساعتين كاملتين.

- كم لديك من الوقت لتبدلي القطار في لوكسمبورغ؟

- ساعة ونصف، لقد قضي الأمر.

بقيت لا أقول شــيئا، راحت تبكي مــن جديد، هذه المرة، كان وجهها ســاكنا، تتكاثف الدموع على رموشــها، تتدحرج على طول خديها وتنهمر على تنورتها السوداء دون أن تحاول الإمســاك بها، لا شــك أنها أضاعت منديلها على الطريق، عندما قررت في النهاية أن تجفف وجهها، استخدمت ظاهر يدها.

- كانت هذه آخر فرصة لي. قالت بصوت مهموس.

- لكن لا، سوف تأخذين القطار التالي غدا ورغم كل شيء..

قامت بإشارة تعبة من يدها كي توقفني.

- أنت لا تعرف. بـدأت، لكنها انتظرت قليلا كي تتابع، حتى ظننت أنها لن تقول شيئا بعد.

عادت وأخـذت مفكرتها وراحت تقلـب صفحاتها بحزن، ثم فجأة أعادت إغلاق الدفتر الصغير بصخب قاطع ومالت نحوي.

- نحـن لا نعرف بعضنا البعض، ولكن سـوف أحكي لك كل شيء، بئس الأمر، يجب أن أتكلم، لا يمكنني أن أبقى هكذا، دون أن أقول شيئا.

نشقت، ورمقتني بنظرة خاطفة.

- ولكن، أحذرك، إنها قصة بنات.

- أحب كثيرا قصص البنات.

- لا، أنت تحب البنات، الأمر ليس مشابها.

عاد الالتماع الماكر لنظرتها، كان ذلك إشارة جيدة.

- في البداية، يجب أن أقول لك: صديقي الألماني غني جدا.

- هذا جيد.

- لا، إنـه فاحش الثراء، ليـس هو، هو لا يزال صغيرا، ولكن عائلته.

- وأين المشكلة في ذلك؟

كانت قد عثرت على منديل ورقي وراحت تعيد ترتيب وجهها وهي تتابع الحديث معي، أدركت أنها انطلقت، لا، بل لم تعد ترد على أسئلتي.

- والـداي وأنا، عندما غادرنا مالـي، وصلنا في البداية إلى فرنسا، وجد أبي عملا في سارتوفيل، كنت مسرورة جدا هناك، لكنه توفي في السنة التالية في حادث، دهسته سيارة.

- هل كان لديه عدة زوجات؟

- بالضبط، قالت وهي تتطلع إلي مندهشة لطرحي هذا السؤال، أمي الزوجة الثانية، بقيت الأولى في البلاد، حدثت تعقيدات، قصص أوراق، وقعنا في الطفر التام، كنا ثلاثة أشخاص عشنا داخل ثمانية أمتار مربعة، أختي وأنا، لم يكن لدينا ما نأكله سوى ما يقدم إلينا عند الظهيرة في مطعم المدرسة، توجب العثور على حل، بمساعدة إمام يعظ في تلك الأنحاء تعرفت أمي على تركي يعيش في ألمانيا، تزوجت منه ورحلنا جميعا لملاقاته في كييل.

إعلان جديد أعلم المسافرين بأن الانتظار سيطول إلى ثلاث ساعات، هزت واسّا كتفيها.

- الآن على كل حال.. نعم، كنت أقول لك، ألمانيا.. حسنا، لأدع التفاصيل، كان لدى التركي مرآب صغير، أصبحنا بحال أفضل، صار لدينا قوت، لكن كييل كانت الجحيم بالنسبة لي، هادئة، باردة وثريّة، لم يكن لدي شيء أفعله في بلاد كهذه، تابعت دراستي الثانوية حسب استطاعتي. الألمانية، أتحدثها ولكن لا أحبها كما هو واضح، عندما غادرت البلد للعودة إلى فرنسا، لم يكن لدي هناك أي صديق.

- وخطيبك؟

- تعارفنا لاحقا، في المرة الأولى التي عدت فيها إلى ألمانيا كي أزور أمي.

- هل تعارفتما في قطار إذا؟

- نعم، في قطار، ولكن ذلك القطار لم يكن معطلا.

لم تعد تبكي ورأيتها صراحة تضحك.

- أنت تفهم، باريس كانت طيبة معي، حصلت معي بعض

القصص الصغيرة هناك، حين رأيت هذا الصبي الجميل الخجول جالسا قبالتي، لم أتردد، كانت أمي قد أرسلت لي بطاقة القطار السريع لأقرر العودة لرؤيتها، كانت الرحلة سريعة في القطار السريع، مع ذلك، كنا قررنا لدى وصولنا أننا سنتزوج وانتهى الأمر.

- هل عرّفك إلى عائلته؟

- في الحال، هنا تعقدت الأمور، والده رئيس شركة كبيرة، رجل كسب ثروات، لا يستفيد منها كثيرا. لاحظ، هو في نوع من المشافي منذ خمس سنوات، الزهايمر.

- والأم؟

- أنت عالم بها، تطرح الأسئلة المناسبة، الأم شريرة، ما إن رأتني حتى أعلنت الحرب.

- لماذا؟

- برأيك؟ نادلة صغيرة مفلسة، وسوداء فوق ذلك، تسرق منها ابنها الوحيد، كانت ترى له مستقبلا آخر، صدقني.

- هل هي عنصرية؟

- لم يعد هناك عنصريون في ألمانيا منذ الحرب العالمية الثانية.

لعلها تمزح دائما، حتى إنها لم تبتسم.

- تصارعت معها خلال سنتين، لم أصارعها حقيقة، فهي ماكرة جدا لتسمح بذلك. رسميا، أحدنا يوقّر الآخر، لكنها تفعل كل شيء كي تكسر الذي بيني وبين باتريك، وأنا أعرف ذلك، اسمه باتريك.

- فهمت.

- في البدء، أقنعته بأن ليس عليه الزواج فورا وأن لا شيء يدعو للاستعجال، ومنذ ذلك الحين، وبلطف، حاولتْ إبعاده عني، راحت تعرفه إلى بنات صديقاتها (لاحظ هنا، أنا لا أخشى أحدا)، تخيفه بقصص الشعوذة، ويكون ذلك في غاية المكر، لا تتحدث أبدا عني بشكل مباشر، أقسى ما في الأمر هو أنني لست هناك كي أرد الضربة بضربة، آتي قدر استطاعتي، ولكن حتى بالتدبير مع رئيسي وزملائي، يصعب علي التفلت أكثر من مرة كل شهر.

- لماذا لا تذهبين للسكن هناك بما أن هذا مهم بالنسبة إليك؟

- بأي مال؟ أنفق كل شيء في هذه الرحلات وعلى الملابس، لا تنظر إلى لباسي الموحد، ملابسي في الحقيبة، عندما أرغب أعرف كيف أتأنق.

نظرا لوزن حقيبتها، في الواقع يبدو أن لديها مجموعات.

- تقولين بأن لديه المال، بإمكانه أن يخلصك من مأزقك؟

- هذا أسوأ ما في الأمر.

كانت الفلبينيات قد غفون، والعربة المتوقفة بإضاءتها الضعيفة تشبه شرفة مقهى على بحر الشمال، في خارج الموسم، كنا نسمع الريح في الخارج تضرب على النوافذ مطرا أسود ناعما، غيرت واسّا وضعيتها، كما هي جالسة، استدارت نحوي وأسندت ظهرها إلى دعامة العربة.

- يجب أن تفهم؛ باتريك ولد، إنه أصغر مني سنا، لا يمكن ملاحظة هذا لأنه طويل وصلب العود مثلك، فضلا عن ذلك، أنتما متشابهان قليلا، لكن هو، داخل رأسه عمره اثنتا عشرة سنة، بوسعك أن تصدقني، ليس لديه أدنى فكرة أية حياة شاقة

أعيش، ولو حكيت له لانتابه الخوف، لا تنتظر أمه سوى ذلك كي تفسر له أنني أريده من أجل مالهم. وعليه، ليس فقط لا أطلب منه شيئا، إنما حين نكون معا، نتقاسم كل شيء، لا بل وغالبا، أنا التي أدفع.

- اعذريني إن سألتك هذا، ولكن.. هل تحبينه؟

- بالتأكيد أحبه، إنه صبي لطيف، متعلم ويحترمني.

حدقت فيها بنظرة لا شك أنها بدت لها مرتابة فانفجرت غاضبة.

- في كل الأحوال، هو الرجل الذي أحتاج إليه، وأنا على يقين من أنني سأتمكن من إسعاده.

نشقت، كنت أنظر إليها بإمعان، هي صادقة على طريقتها، فيها مزيج مؤثر من المصلحة الشخصية والعفوية، من اللامبالاة والمكر، لم أكن قادرا على أن أعرف إلى أي حد كانت هي نفسها مقتنعة بمشاعرها، لكنها كانت قد اختارت وهي ثابتة العزيمة.

- وهو، أين هو من كل ذلك؟

- هو، لا يمكن التأثير عليه، حين لا أكون هناك، تكسّر أمه بي بلا توقف، شيئا فشيئا، سوف تتوصل بالتأكيد إلى انتزاعه مني، الشهر الفائت، حققت انتصارا مذهلا، وهو الأحمق، لم يفهم شيئا من خدعتها، أقنعته بالذهاب لمدة سنة إلى الصين من دوني ليقوم بالتأهيل.

- ماذا يدرس؟

- الكونغ - فو.

- أنت تمزحين؟

- إطلاقا، إنه في غاية الجدية، كان لا شيء في المدرسة،

لكــن الفنون الحربية اســتهوته على الدوام، دفعــة واحدة، تعلم الصينية وســوف تدفع لــه أمه كلفة عام في ديــر على ما يبدو أكثر قســاوة أيضا من معبد شــاولين أو قمة جبل وودانغ اللذين يحدثني عنهما طوال الوقت، وكذلك بالمصادفة، هو دير لا يوجد فيه سوى الرجال.

كانــت تروي ذلك بنوع من الحماس، كلاعب شــطرنج يصف الحركة الرابحة لخصم ماهر.

- سوف يرحل في غضون أسبوعين.

لدى ذكرها لهذه المهلة، اغتمت وبدأ جناحا أنفها بالارتعاش، ظننت أنها ســتبدأ بالبــكاء ثانية، لكنها قفزت نحوي واســتعاد وجهها ملامح قاسية ومصممة.

- الحل الوحيد، أعرفه منذ وقت قصير، هو أن أكون حاملا، أعــرف باتريك، هو يحب الأطفــال، يحترم العائلة، إذا أصبحت حاملا، فلن يتركني بعد الآن.

- ما الذي يمنعك؟

- أنت تظن أن ذلك ســهل حين تسكن بعيدا هكذا؟ يجب أن أكون هناك في الوقت المناسب، لقد مرت سنة تقريبا منذ قررت ذلك، ســتصدقني إذا أردت، لكنني لــم أتوصل قط إلى مطابقة التواريخ..

- التواريخ..

- الإباضة، هناك وقت لهذا، لكنك سمعت بالحديث عن هذا؟

- تحسبين أوقات الإباضة؟

- ليس في البداية، في البداية لم أكن أحســب شيئا إطلاقا، لم أكــن آخذ حبوبي لمنع الحمل وأفكر، ما يحصل ليحصل، لكن

الوقت يمضي والآن أعرف أنه سيرحل، أنا مجبرة على القيام بذلك بشكل علمي، انحنت نحو حقيبتها واستعادت الأنبوب البلاستيكي الأبيض الذي شاهدته تتلاعب به بيديها في بداية الرحلة، سحبت الطرفين وفُتح كاشفا عن سلّم مدرّج.

- هل تعلم ما هذا؟

- ميزان حرارة؟

ضحكت وهي تهز رأسها.

- سبق أن قلت لك هذه قصص بنات، كل الفتيات يعرفن ذلك، هذا اختبار الإباضة، يعمل معي بشكل جيد لأنني منتظمة، هل ترى الخط الأزرق الصغير هنا، يدلك أين أنت، إذا تجاوزت تحت هذه الإشارة بفارق، ينتهي الأمر لهذه المرة، يجدر انتظار الدورة القادمة.

هذا ما راحت تتأكد منه في دورة المياه إذا.

- خلال الأشهر الأخيرة، لم يكن لدي الحظ، لم أتمكن من التفرغ عند الوقت المناسب، لم يتزامن قط مع نهاية أسبوع، عدا الشهر الفائت، ولكن عند ذاك كان هو مريضا ولم نفعل شيئا.

- وهذه المرة؟

- هذه المرة، كان الأمر على ما يرام، ولكن كان يجب أن أصل غدا باكرا، سبق أن هيأت كل شيء لإيقاظه وجعله يسافر، هو كسول جدا في الصباح، إنه في الغالب من النوع الذي ينام إلى وقت متأخر.

أعادت واسّا إغلاق الأنبوب، وألقت به في حقيبة يدها المفتوحة، قضي الأمر وانهزمت، كان ثمة شيء حزين للغاية في استعراض هذه الطفلة الشجاعة التي لم تقدم لها الحياة

أية هدية لكنها لـــم تتراجع قط، الأكثر صعوبة في هذه القصة، لم يكن الفشل، إنما الظلم، لم تكن تستحق ذلك، كنت وأنا أنظر إليها، لا أشـــعر لا بالشـــفقة ولا بالأســـى، من الحماقة ربما أن أقول، فقط بالإعجاب.

اليوم حين نذكر هذه القصة مع واسّا فذلك كي نضحك، لقد مر الزمن، قلت لكم منذ ســبعة أعوام، المشهد لم يتغير، لا أزال أسكن في الأردين، وللوصول إليها أركب العربات الكئيبة نفسها.

أما بالنســبة لواسّا، لحسن الحظ، فهذه قصة قديمة، ترسل لـــي أمانيها كل عام مع صور لباتريك، لقد ورث الثروة عن والده في السنة الماضية، يعيشان في منزل رائع في هامبورغ ويقضيان الصيــف في فيلا كبيــرة على شــاطئ الريفييــرا بالقرب من بورتوفينو، مع ولديهما، الصبي هو الأصغر، والبنت تكبره بسبعة أعوام. لها على ما يبدو طبع مســتقل جدا، الصور التي أرسلتها لي واسّا سيئة، كنت لآخذ بدلا منها بكل طيبة خاطر لكنها على مـــا يبدو لا تتمنى أن ألتقي بعائلتها، باتريك لا يعلم بوجودي من دون شك، وهذا أفضل.

لم ألتق واسّـــا مرة ثانية ســـوى مرة واحدة، فـــي باريس في شهر كانون الثاني الفائت، شـــربنا كأسا في مونبارناس بالقرب مـــن فندقهـــا، ازداد وزنها قليـــلا، لكن ذلك كان يليـــق بها جدا، كان يصعـــب التعـــرف عليها إلى حد ما، ترتدي فســـتانا ماركة، تغطيهـــا مجوهرات الذهب الأبيض، شـــعرها مســـرّح ومتبرّجة بعناية، صعب علي كثيـــرا التعرف على النادلة الصغيرة صاحبة الوجه الذي أفسدته الدموع والتي كانت تبكي يأسها، ولكن حين أتينا على ذكر أمســـية العربة الشهيرة، تعرفت إليها جيدا، ما إن

تتكلم، تدب فيها الحركة، تتغير ملامحها، يعود كل شيء؛ الطفلة الماكرة، سنوات الشقاء، القدرة على المخاطرة بكل شيء، لقد أعدت التفكير بها دائما، صحيح أنني لا أمتلك ذكريات واضحة حول هذه النقطة، أكدت لي واسّا أن ما حصل كان بسببي، لا أستطيع تصديق ذلك، ألا تحاول على الأغلب إقناعي بأنني أنا من قررت كل شيء؟ هذا بحق أسلوبها مع الرجال.

مع ذلك، ليس بوسعي أن أكون جازما تماما؛ وبقي التسلسل الدقيق للأحداث مبهما قليلا في ذاكرتي، أمر وحيد لا ريب فيه، عاود القطار رحيله تلك الليلة نحو الحادية عشرة والنصف، بعد ثلاث ساعات من التعطيل، أجد نفسي بعد ذلك أنزل حقيبة واسّا من حمّالة الأمتعة، كانت فعلا ثقيلة، لحسن الحظ، كان فيها دواليب صغيرة، ومن ناحيتي، لم يكن معي سوى حقيبة ظهر صغيرة مع معداتي، كانت السيارة في موقف السيارات كما هو متوقع، وقد انطلقت من أول دفعة رغم رطوبة الليل، أذكر أننا مزحنا طول الطريق وواسّا كانت تضحك بصوت عال، كان كلانا متوترا، نظرت إلى بيتي دون أن تتمكن من إخفاء الشفقة التي أحسست بها تجاهي، لكنها كانت من النوع الذي يحترم أذواق الآخرين. في النهاية، لم تكن هنا إلا لليلة واحدة، كنت قد وعدتها باصطحابها في بداية ما بعد ظهر اليوم التالي إلى المحطة للحاق بالقطار الذاهب إلى هامبورغ لإكمال الرحلة.

أخذت حمّاما طويلا وانضمت إلي ملفوفة بمنشفة، كنت قد دفأت الغرفة بشدة وغيرت الملاءات بسرعة، كانت أوجه الوسائد غير متماثلة بالتأكيد لكننا ضحكنا عليها كفاية، كان لديها، كما خمّنت، تحت رداءها، جسد فتي ومشدود، شعرت كأنني أعرف

جسدها من قبل وهي لم تبدُ مستغربة من اكتشاف جسدي.

لكــن فيما يخص مَن اتخذ القرار، يبقـــى ذلك لغزا غامضا، هـــي تدّعي بأنني ســـألتها فـــي القطار فيمـــا إذا كانت لا تزال خصبة بحسب جهازها في تلك الليلة، ولأنها أجابتني بالإيجاب، اقترحت عليها أن أصنـــع لها الطفل الذي كانت تحتاج إليه، في نهايـــة الأمر، لن يكون لدى الوالد الرســـمي أية وســـيلة ليعرف الحقيقة أبدا.

لا أذكـــر أنني قلـــت كلاما كهذا، وجدت الفكـــرة ممتازة لكن لا أظنننـــي قادرا إلى هذا الحـــد أن تخطر على بالي أنا بالذات، الحق يقال، هذا ســـؤال لم أطرحه على نفسي لأول وهلة، مقتنع كليا بجدية مهمتي، قمت ببساطة بواجبي بحميّة،

كانـــت ليلة طويلة، ممتعـــة وجميلة، وإذا نســـيت القليل من كلامنا، لكنني أحتفظ بذكرى لا تنسى عن أقل حركاتنا.

في النهاية، لا ينال المرء دائما هذا القدر من المتعة حين يفعل الخير.

المترجم في سطور

لينا بدر

- مواليد 1961. سورية.
- بكالوريوس في الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة الفرنسية.
- عملت في تدريس اللغة الفرنسية وأمانة المكتبات.
- تراس جمعية Lattaquié accueille الفرنكوفونية.
- ترجمت العديد من القصص القصيرة وقصص الأطفال التي شاركت بها في الدوريات الأدبية العربية.
- ترجمت العديد من الروايات الحاصلة على جوائز أدبية منها: «المكيدة» للكاتب دومينك بوديس، «أليوشا» للكاتب هنري ترويا، «السمكة الذهبية» للكاتب ج.م. لوكليزيو، «أفيون» للكاتب ماكزانس فيرمين، «العودة إلى كازابلانكا» لفؤاد العروي.

المراجع في سطور

أ.د. كاميليا صبحي

- أستاذ الترجمة بقسم اللغة الفرنسية بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- وكيل أول وزارة الثقافة بمصر للعلاقات الثقافية الخارجية.
- كما شغلت سابقا العديد من المناصب داخل مصر وخارجها من بينها:
- ملحق ثقافي، ومستشار ثقافي رئيس البعثة التعليمية بفرنسا وسويسرا وبلجيكا في سفارة ج.م.ع في باريس.
- أمين عام المجلس الأعلى للثقافة - ومدير المركز القومي للترجمة.
- صدرت له العديد من الترجمات من بينها:
- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر 2000، المشروع القومي للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة.
- جرامشي في العالم العربي 2001، المشروع القومي للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة.
- ذكورة وأنوثة (لعالمة الأنثروبولوجيا بالكوليج دي فرانس فرانسواز إيريتيه) الهيئة المصرية العامة للكتاب 2003.
- الشعر الأفريقي المعاصر - مختارات ودراسات - بالاشتراك - المجلس الأعلى للثقافة - 2003.
- الجزء الثالث من موسوعة جامعة كل المعارف «ما هو المجتمع» (المجلس الأعلى للثقافة - المركز الثقافي الفرنسي 2004).
- رحالة وكتاب مصريون إلي فرنسا في القرن التاسع عشر - أنور لوقا - (بالاشتراك) من إصدارات دورة «شوقي لامارتين» باريس - أكتوبر 2006 - مؤسسة البابطين.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر



جان كريستوف روفان

كاتب فرنسي.. ولد في بورج في 28 حزيران / يونيو 1952.
عضو في الأكاديمية الفرنسية منذ 2008.
رئيس سابق لحركة «ضد الجوع».
سفير سابق في غامبيا والسنغال.
أمضى عشرين عاماً من العمل مع المنظمات الإنسانية وحقوق الإنسان.
تنال أعماله إقبالاً وتقديراً كبيرين نظراً لبعدها الإنساني العميق.
من أهمها:
الفخ الإنساني، دار لاتيس 1986.
الحبشي، دار غاليمار 1997، والتي نالت جائزة غونكور وجائزة المتوسط.
القضايا الخاسرة، دار غاليمار 1999، والتي نالت جائزة أنتراليه وجائزة إروينبيرجو.
برازيل الحمراء 2001، والتي نالت جائزة غونكور والجائزة الكبرى من الأكاديمية البحرية.
رحلة لا تنسى 2013، منشورات غيران، والتي نالت جائزة نومادز.
نال أيضاً جائزة الريشة الذهبية عن مجمل أعماله.

سبع حكايا تعود من بعيد

من لا يحب الحكايا؟

جعلها جان كريستوف روفان في كتابه هذا سبعاً، ربما كل يوم حكاية، أو من كل بحر واحدة.

تنقلنا بعض هذه الحكايا إلى بلاد غريبة وثقافات مختلفة، ولأنها من بعيد، فهي تقوم بدور صلة الوصل بين البعد الجغرافي والبعد الزمني.

من موزمبيق إلى كيرغستان، من جبال الألب الإيطالية إلى سواحل جزيرة موريس، سبع حكايا مفعمة بروائح البحر والبر، لكنها تقطر فطنة عالية تجاه حال العالم والدوافع العميقة للكائنات البشرية.

هي تدعو القارئ إلى رحلة خارجة عن المألوف بصحبة أشخاص قدرها واحد تقريباً، مشدودة بطريقة ما إلى ماضيها.

تكشف هذه النماذج عن نقاط ضعف وحنين وآمال تأبى الاندثار.

عبر هذه الحكايا نصادف حضارات غير قابلة للتعايش، جروحاً من التاريخ لم تندمل بعد، وغير ذلك حالات حب عبر القارات وأوقات سعيدة تتشاركها الشعوب.

هو الكاتب الرحالة الباحث عن كنزه، تحت أكوام التراب والحصى تظهر له فينقض عليها بكل سرور.

في أغلبها وصف لمشاهداته، فلقد كانت أمامه كل الفرص كي يدرك بحسه الإنساني العالي القضايا المعاصرة الكبرى.

برؤيته الفريدة أعطى للقضايا وجوهاً إنسانية نقرؤها في هذه الحكايا.

إنها لحظات حياة يشاركنا إياها بمرح وانضباطية عالية.

روفان طبيب الجسد وطبيب الروح أفضل من يرى الاختلاجات المأساوية للعالم، لهذا تأتي أعماله كلها في مصاف متقدمة لقارئ من العالم.

ISBN: 978-99906-0-476-4

إبداعات عالمية

إبداعات عالمية

سبع حكايا تعود من بعيد   جان كريستوف روفان

2016 فبراير
411